روزا لوكسمبورغ

الثورة الروسية 1917

الإعداد الإلكتروني جريدة "المناضل-ة": http://www.almounadil-a.info

1- الأهمية الأساسية للثورة الروسية

الثورة الروسية أروع أحداث الحرب العالمية قاطبة، فاندلاعها وراديكاليتها التي ليس لها مثيل ونتائجها الخالدة أبدا تشكل الإدانة الأوضح للجمل الكاذبة التي بثتها الاشتراكية الديموقراطية الرسمية الألمانية بحماس في بداية الحرب غطاء أيديولوجيا لحملة الإمبريالية الألمانية من أجل المغانم. أشير هنا إلى تلك الجمل المتعلقة برسالة الحراب الألمانية في إسقاط القيصرية الروسية وتحرير شعوبها المضطهدة.

إن اندفاع الثورة الهائل في روسيا ونتائجها البعيدة الغور التي حولت كل العلاقات الطبقية وطرحت كل المسائل الاجتماعية والاقتصادية، وحملت الثورة على أن تتطور باطراد بفعل المنطق الداخلي لهذه المسائل من مرحلتها الأولى، مرحلة الجمهورية البورجوازية، إلى مراحل أكثر تقدما، جاعلة في النهاية من سقوط القيصرية مجرد حدث ضئيل، إن هذا كله يبين بوضوح الشمس الساطعة أن تحرير روسيا لم يكن أحد إنجازات الحرب والهزيمة العسكرية للقيصرية لم يكن خدمة أدتها «الحرب الألمانية في القبضات الألمانية» كما وعدت بذلك مجلة «نيوزايت» في إحدى افتتاحياتها عندما كان كاوتسكي يرئس تحريرها. إنه على العكس من ذلك يبين أن تحرير روسيا متجذر بعمق في التراب الروسي وأنه قد بلغ تمام النضج داخليا. فالمغامرة العسكرية للإمبريالية الألمانية في ظلال البركة الأيديولوجية التي حبتها بها الاشتراكية الديموقراطية الألمانية، لم تؤد إلى الثورة الروسية، بل إنها لم تفعل أكثر من عرقلتها في البداية، وتأجيلها ردحا من الزمن بعد مدها الصاعد العاصف الأول في سنوات 1911-1913، ثم أحاطتها بعد اندلاعها بأصعب الظروف وأكثرها شذوذا.

عدا ذلك، تشكل هذه التطورات بالنسبة لكل مراقب مفكر دحضا حاسما للنظرية المذهبية الجامدة التي شارك كاوتسكي الاشتراكيين الديموقراطيين الحكوميين(1) في اعتناقها، والتي تفترض أن روسيا، بوصفها بلدا متأخرا اقتصاديا وبلدا تسوده الزراعة، ليست ناضجة للثورة الاشتراكية ولدكتاتورية البروليتاريا. وهذه النظرية التي تعتبر الثورة البورجوازية وحدها أمرا ممكنا في روسيا، هي أيضا نظرية الجناح الانتهازي في الحركة العمالية الروسية، جناح من يسمون بالمناشفة تحت قيادة أكسلرود ودان المجربة. ومن هذا المفهوم تنطلق تاكتيكات تحالف الاشتراكيين في روسيا مع البورجوازية الليبرالية، وعلى أرضية هذا الفهم للثورة الروسية، الذي يستتبع أوتوماتيكيا المواقف المفصلة للانتهازيين الروس والألمان بشأن مسائل التاكتيك، يجد هؤلاء أنفسهم متفقين مع الاشتراكيين الديموقراطيين الحكوميين الألمان. كان على الثورة الروسية، طبقا لوجهة نظر هذه الأطراف الثلاثة، أن تتوقف عند الحد الذي وضعته الإمبريالية الألمانية، في شنها للحرب، هدفا نبيلا لها طبقا لميثولوجيا الاشتراكية الديموقراطية الألمانية، أي أن تتوقف عند إسقاط القيصرية. وتعتبر وجهة النظر هذه أنه إذا كانت الثورة الروسية قد تخطت هذه المرحلة ووضعت نصب عينيها هدفا هو ديكتاتورية البروليتاريا، فما ذلك إلا خطأ الجناح الراديكالي من الحركة العمالية الروسية، خطأ البلاشفة. وتصور كل المصاعب التي جابهتها الثورة في مسيرتها وكل الفوضى التي عانت منها على أنها نتيجة بحتة لهذا الخطأ المميت.

نظريا، يتبع هذا التعليم (الذي تدعي صحيفة «فوروارتز» أيام كان يحررها ستامبفر وكذلك أيام كان يحررها كاوتسكي أنه ثمرة «التفكير الماركسي») من الاكتشاف «الماركسي» الأصيل أن الثورة الاشتراكية مسألة قومية، وإذا صح القول مسألة محلية، في كل بلد حديث على حدة. بالطبع، يعرف رجل من طراز كاوتسكي جيدا كيف يتتبع في ضباب المعادلات المجردة الأزرق الارتباطات العالمية الاقتصادية لرأس المال، تلك الارتباطات التي تجعل من البلدان الحديثة جميعا كلا عظويا متكاملا. عدا ذلك لا يمكن حل مسألة الثورة الروسية ضمن حدود المجتمع البورجوازي، ما دامت هذه الثورة نتاج التطورات العالمية بالاضافة إلى المسألة الزراعية.

عمليا، يمثل هذا التعليم محاولة للتخلص من أي مسؤولية تجاه خط سير الثورة الروسية، بالقدر الذي تهم فيه هذه المسؤولية البروليتاريا العالمية، وبخاصة الألمانية منها. كما أنه يمثل محاولة لإنكار الارتباطات العالمية لهذه الثورة. ليست فجاجة روسيا وعدم نضجها هو ما أثبتته أحداث الحرب والثورة الروسية، بل عدم نضج البروليتاريا الألمانية لإنجاز مهامها التاريخية. إن جعل هذا الأمر واضحا تماما هو الواجب الأول الملقى على عاتق أي بحث نقدي للثورة الروسية.

([1])-انقسمت الاشتراكية الديموقراطية خلال الحرب إلى ثلاثة أجنحة: جناح الأغلبية الذي دافع عن الحكومة الإمبراطورية علنا وشارك فيها، وجناح كاوتسكي الذي دفع عن نفسه مسؤولية الحرب ولكنه زود من قبلوا هذه المسؤولية بكثير من حججهم النظرية، وجناح قادته روزا لوكسمبورغ مع كارل ليبكنخت عارض الحرب علنا ونادى بالتضامن الأممي والثورة الاجتماعية بدلا عنها. راجع «روزا لوكسمبرغ، نشرة يونيوس: الأزمة في الاشتراكية الديموقراطية الألمانية» في هذه المختارات.

اعتمد مصير الثورة الروسية بصورة كاملة على الأحداث العالمية. وأوضح برهان على بعد رؤية البلاشفة السياسية وصلابة مبادئهم وجرأة منظور سياساتهم هو أنهم بنوا سياساتهم كلية على الثورة العالمية. ففي الثورة الروسية يتضح بجلاء التقدم العظيم الذي أحرزه التطور الرأسمالي في العقد الأخير. لم تثر ثورة 1905-1907 سوى أصداء باهتة في أوروبا، ولذا كان لا بد أن تظل مجرد فصل افتتاحي، أمّا الاستمرار وفصل الختام فقد كانا رهن التطورات المقبلة في أوروبا.

من الواضح أن النقد النفاذ الحصيف هو الوحيد القادر على اكتناه مكنونات التجارب والتعاليم، وليس النهج غير النقدي الذي يتوخى تلفيق الأعذار. وما دمنا نبحث في أول تجربة لديكتاتورية البروليتاريا في التاريخ العالمي، وما دامت هذه التجربة تشق طريقها في ظل أقسى الظروف التي يمكن تصورها، في خضم اللهيب والفوضى اللذين خلقتهما على امتداد العالم عمليات الذبح الجماعي الامبريالية، ما دامت قد وقعت بين براثن أعتى القوى العسكرية رجعية في أوروبا وصاحبها أكمل فشل للطبقة العاملة العالمية، ما دام الأمر كذلك فإن من الحماقة أن نظن أن كل ما أنجز وكل ما لم ينجز في تجربة لديكتاتورية البروليتاريا في ظروف بهذا الشذوذ يمثل ذروة الكمال بعينها. على العكس من ذلك، تجبرنا المفاهيم الأولية للسياسة الاشتراكية، ويرغمنا التبصر في متطلباتها الضرورية تاريخيا على أن نفهم أنه في ظل ظروف قاتلة كهذه لا تستطيع أعظم المثاليات ولا أكثر الطاقات الثورية تجربة أن تحقق الاشتراكية والديموقراطية، بل يمكنها فقط أن تقوم بمحاولات مشوهة في سبيلهما.

إن جعل هذا الأمر بارزا بوضوح في كل مناحيه الأساسية ونتائجه لواجب أولي على اشتراكيي كل البلدان، إذ أننا لا نستطيع قياس الأبعاد الهائلة لمسؤولية البروليتاريا العالمية ذاتها عن مصير الثورة الروسية إلاّ على خلفية هذه المعرفة المرة. إلى ذلك، لا يمكن أن تصبح الأهمية الحاسمة للعمل الأممي الحازم فعالة إلاّ على هذا الأساس، فبدون هذا العمل كدعم ضروري، لا يمكن حتى لأعظم الطاقات وأجسم تضحيات البروليتاريا في بلد واحد إلاّ أن تقع في شرك متاهة التناقضات والتخبطات.

ليس من شك في أن الرأسين الحكيمين اللذين يديران دفة الثورة الروسية، ليس من شك في أن لينين وتروتسكي، قد اتخذا على طريقهما الشائك الذي تكتنفه كل صنوف الافخاخ أكثر من خطوة حاسمة مصحوبة بتردد داخلي (نفسي) عظيم ومعارضة داخلية (نفسية) جد عنيفة. وليس بالتأكيد أبعد عن تفكيرهما من الاعتقاد بأن كل ما فعلاه وكل ما لم ينجزاه في ظل ظروف الاضطرار والضرورة القاسية وفي خضم دوامة الأحداث الصاخبة يجب أن تعتبره الأممية مثالا ساطعا على السياسة الاشتراكية التي لا يصح تجاهها سوى الإعجاب غير النقدي والتقليد الحماسي.

وليس أقل خطلا الخشية من أن يؤدي التفحص النقدي للطريق التي شقتها الثورة الروسية حتى الآن إلى إضعاف الاحترام وقوة الجاذبية اللذين يتمتع بهما المثال الروسي الذي بإمكانه وحده أن يتغلب على خمول الجماهير الألمانية. ليس هناك ما هو أبعد عن الحقيقة من هذا. إذ لا يمكن أبدا إيقاظ الطاقة الثورية للجماهير العاملة في ألمانيا ثانية بروح الوسائل الوصائية التي اتبعتها الاشتراكية-الديموقراطية الألمانية المأسوف على ذكراها. ولا يمكن حث هذه الطاقة من جانب أي سلطة نقية لا تشوبها شائبة، سواء أكانت هذه سلطة «لجاننا العليا» أم سلطة «المثال الروسي». ليس بخلق روح الحماسة الثورية، بل بالعكس من ذلك: فقط بالتبصر في كل الجدية المخيفة وفي كل التعقيدات التي تكتنف المهام، فقط كنتيجة للنضج السياسي واستقلال الروحية، فقط كنتيجة للقدرة على المحاكمة النقدية من جانب الجماهير، تلك القدرة التي قتلتها بمنهجية الاشتراكية الديموقراطية عقودا عدة متذرعة بشتى الأعذار، بهذا وبهذا فقط يمكن أن تولد في البروليتاريا الألمانية القدرة على العمل التاريخي.

إن الاهتمام بتحليل نقدي للثورة الروسية في كل ارتباطاتها التاريخية لهو أفضل مران للطبقة العاملة الألمانية والعالمية على المهام التي تجابهها نتيجة نمو الوضع الراهن.

إن الفترة الأولى للثورة الروسية، من بداياتها في (أذار) مارس إلى ثورة أكتوبر، تتطابق تماما بخطوطها العريضة مع مجرى تطور كل من الثورة الانجليزية العظمى والثورة الفرنسية العظمى، فهذا هو المجرى النموذجي لكل تصفية حسابات عامة تقوم بها القوى الثورية المولودة في رحم المجتمع البورجوازي.

يتحرك تطور الثورة في خط صاعد: من بدايات معتدلة إلى تجذير للأهداف متعاظم أبدا، وفي خط مواز من تحالف الطبقات والأحزاب إلى الحكم الأوحد للحزب الراديكالي.

كان الكاديت2، أي البورجوازيون الليبراليون، يقفون في البداية في (آذار) مارس 1917 على قمة الثورة. فقد جرف الصعود الأول للمد الثوري معه كل الناس وكل شيء. وتحولت الدوما الرابعة فجأة إلى جهاز للثورة، وهي التي كانت النتاج المغرق في الرجعية لحق الاقتراع المغرق في الرجعية ذي البنود الأربعة والذي نجم عن الانقلاب. وفجأة شكلت الأحزاب البورجوازية جميعا، حتى أحزاب اليمين القومي، جيشا ضخما ضد الحكم المطلق. ووقع هذا الأخير في الهجوم الأول وكأنه عضو مات ولم يكن يحتاج لأكثر من لمسة كي يسقط. كذلك إنهار في ساعات الجهد القصير الأمد الذي بذلته البورجوازية الليبرالية لكي تنقذ على الأقل العرش والأسرة المالكة.
وأخذت مسيرة الأحداث الجارفة تقفز في أيام وساعات مسافات احتاج قطعها سابقا في فرنسا عقودا. وأصبح واضحا أن روسيا بهذا إنما تحصد نتائج قرن من التطور الأوروبي، وفوق كل ما عداه أصبح واضحا أن ثورة 1917 امتداد مباشر لثورة 1905-1907 وليست هدية من «المحرر» الألماني. لقد انطلقت حركة (آذار) مارس 1917 مباشرة من النقطة التي توقف عندها العمل قبل سنين عشرة. فكانت الجمهورية الديموقراطية النتاج الكامل المنضج داخليا لبداية الثورة.
والآن بدأت المهمة الثانية والأصعب. كانت جماهير البروليتاريا المدينية منذ اللحظة الأولى القوة الدافعة للثورة، غير أن مطالبها لم تكن لتقتصر على الديموقراطية السياسية، بل كانت متعلقة بالمسألة الملحة للسياسة الدولية-السلام الفوري. وفي الوقت ذاته احتضنت الثورة جماهير الجيش التي كانت ترفع المطلب ذاته، مطلب السلام الفوري، كما احتضنت جماهير الفلاحين التي دفعت بالمسألة الزراعية إلى المقدمة، تلك المسألة التي كانت منذ عام 1905 محور الثورة ذاته. السلام الفوري والأرض – كان لا بد أن يستتبع هذين الهدفين بالضرورة الانقسام الداخلي في صفوف الجمهرة الثورية. فمطلب السلام الفوري متعارض بصورة لا تقبل التسوية مع الميول الامبريالية للبورجوازية الليبرالية التي كان ميليكوف الناطق باسمها. ومن جهة أخرى كانت مسألة الأرض شبحا مفزعا للجناح الآخر من البورجوازية، ملاك الأرض، وهي الى ذلك تمثل بشكل عام هجوما على مبدأ الملكية الخاصة المقدس، وهذه مسألة حساسة بالنسبة لكل الطبقة المالكة.
هكذا ابتدأ في اليوم الأول بعد انتصارات الثورة الأولى صراع داخلها حول مسألتين ملحتين: السلام والأرض. لجأ البورجوازيون الليبراليون إلى مط الأمور وتجنبها، أمّا جماهير الشغيلة والجيش والفلاحون فقد دفعت بالأمور إلى الأمام بعنف متزايد. وليس هناك من شك في أن مصير الديموقراطية السياسية للجمهورية كان مرتبطا بمسألتي السلام والأرض. فقد سمحت الطبقات البورجوازية لنفسها أن تجر بفعل الموجة العاصفة الأولى للثورة إلى حد الحكومة الجمهورية. أمّا الآن فقد بدأت تبحث لنفسها عن قاعدة تدعمها في المؤخرة وبدأت تنظم بصمت ردة مضادة للثورة. فكانت حملة القوزاق بقيادة كاليدين تعبيرا واضحا عن هذا الاتجاه. ولو نجحت هذه الحملة، لما تقرر مصير مسألتي السلام والأرض فحسب، بل ومصير الجمهورية كذلك، ولكانت الديكتاتورية العسكرية وسيادة حكم الارهاب ضد البروليتاريا وعودة الملكية النتائج التي لا مفر منها لهذا النجاح.
من هنا، نستطيع أن نحكم على الطابع الطوباوي والرجعي أساسا للتاكتيكات التي سمح لها «الكاوتسكيون» الروس أو المناشفة أن تقود خطاهم. إذ أن هؤلاء نتيجة إدمانهم خرافة الطابع البورجوازي للثورة الروسية (الا ترون أنه لا يفترض في روسيا في الوقت الحاضر أن تكون ناضجة للثورة الاشتراكية!) تعلقوا تعلقا يائسا بالتحالف مع الليبراليين البورجوازيين. ولكن هذا يعني اتحاد عناصر فصل بينها التطور الطبيعي الداخلي للثورة وأصبحت في صدام حاد بعضها مع بعض. لقد أراد دان وأكسلرود أن يتعاونا بأي ثمن مع تلك الطبقات والأحزاب التي كانت تهدد الثورة وغنيمتها الأولى، الديموقراطية، بأعظم الأخطار.
من المدهش بخاصة أن نلاحظ كيف أن هذا الرجل المجدّ (كاوتسكي)، بجهده الذي لا يكل في الكتابة المنهجية المسالمة طوال سنوات الحرب العالمية الأربع، قد أحدث في نسيج الاشتراكية ثقبا وراء آخر، فخرجت الاشتراكية من بين يديه مثقبة كالمنخل، دون أن تكون فيها بقعة واحدة سالمة. ولا تجد اللا مبالاة غير النقدية التي ينظر بها أتباع كاوتسكي إلى هذا العمل الكاد الذي يقوم به منظرهم الرسمي والتي يبتلعون بها كل جديد من اكتشافاته دون أن يرف لهم جفن، لا تجد هذه نظيرها إلا في اللامبالاة التي ينظر بها أتباع شيدمان وشركاه بينما يقوم هذا بتجريم الاشتراكية في الممارسة. وفي الواقع، يكمل الجهدين بعضهما تماما. فمنذ اندلاع الحرب، لم يكن كاوتسكي، القيم الرسمي على معبد الماركسية، يقوم في حقل النظرية إلا بما قام به الشيدمانيون في حقل الممارسة، أي بالتحديد:
1- الأممية أداة للسلام.

[2] الكاديت اختصار للإسم الروسي لحزب الديموقراطيين الدستوريين.

2- نزع السلاح وعصبة الأمم والقومية.
وأخيرا 3- الديموقراطية لا الاشتراكية3.
في هذا الوضع، أسدت النزعة البلشفية خدمة تاريخية بمناداتها منذ البداية بالتاكتيكات التي كان بإمكانها وحدها أن تنقذ الديموقراطية وتدفع بالثورة قدما إلى الأمام، وباتباعها لهذه التاكتيكات بصلابة حديدية. كل السلطة في يد جماهير العمال والفلاحين، في يد السوفييتات – كانت هذه هي الطريقة الوحدية للتغلب على المصاعب التي وجدت الثورة نفسها تواجهها، كانت هذه ضربة السيف التي حلت العقدة المستعصية، وخلصت الثورة من الزقاق الضيق المسدود وفتحت أمامها طريقا رحبا إلى الآفاق الحرة المنفتحة.
هكذا كان حزب لينين هو الوحيد في روسيا الذي استطاع أن يلتقط المصلحة الحقيقية للثورة في تلك المرحلة الأولى، وكان العنصر الذي دفع بالثورة إلى أمام، وبهذا كان الحزب الوحيد الذي اختط حقا سياسة اشتراكية.
وهذا أيضا ما يوضح لماذا استطاع البلاشفة أن يصلوا في أقصر وقت إلى قيادة الثورة وأن يجمعوا تحت لوائهم كل جماهير الشعب الحقيقية: البروليتاريا المدينية والجيش والفلاحون وكذلك العناصر الثورية في الديموقراطية، والجناح اليساري للاشتراكيين الثوريين، استطاعوا ذلك رغم أنهم كانوا في بداية الثورة أقلية مطاردة مضطهدة تتعرض للإفتراء والهجوم عليها من كل جانب.
ضاق الوضع الحقيقي الذي وجدت الثورة الروسية نفسها فيه بعد بضعة شهور، حتى لم يعد يقدم سوى واحدا من بديلين: أمّا انتصار الردة المضادة للثورة وأمّا ديكتاتورية البروليتاريا، أمّا كالدين وأمّا لينين. هكذا كان الوضع الموضوعي، تماما كما يبرز نفسه في كل ثورة بعد أن يتبخر الثمل، وكما أبرز نفسه في روسيا نتيجة مسألتين عيانيتين ملحتين، هما مسألتي الأرض والسلام اللتين لم يكن لهما من حل ضمن إطار الثورة البورجوازية.
أكدت الثورة الروسية بهذا الدرس الأساسي لكل ثورة عظيمة وقانون وجودها الذي ينص على ما يلي: «أمّا أن تتقدم الثورة في نسق سريع وعاصف وصارم فتحطم كل الحواجز بيد من حديد وتضع لنفسها أهدافا متقدمة باستمرار، وأما أن تدحر سريعا وتلقى خلف نقطة بدايتها الضعيفة وتقمعها الردة المضادة للثورة. فليس ممكنا أبدا في ثورة ما أن تتوقف بلا حراك، أن تترك الزمن يمضي وهي واقفة أو أن تقنع بأول هدف تتمكن من بلوغه. ومن يحاول أن يطبق الحكمة البيتية، المستقاة من المعارك البرلمانية بين الفئران والضفاضع، في حقل التاكتيك الثوري إنما يبرهن بذلك أنه غريب عن سيكولوجية وقوانين وجود الثورة ذاتها، وأن التجربة التاريخية سر مكنون بالنسبة له.
فلو أخذنا مثلا مسيرة الثورة الانجليزية منذ بدايتها في 1642، لوجدنا أن منطق الأشياء ذاته جعل الترددات الضعيفة الأولى للمشيخيين، الذين تجنب قادتهم عامدين معركة حاسمة مع شارل الأول والإنتصار عليه، تؤدي بالضرورة إلى استبدالهم بالمستقلين الذين اخرجوهم من البرلمان وتسلموا مقاليد السلطة عوضا عنهم. وبالطريقة ذاتها شكل الجنود والشريحة الدنيا من البورجوازية الصغيرة، الليفلرز4، القوة الدافعة لحركة المستقلين كلها، وبالمثل وفي النهاية شكلت العناصر البروليتاريا داخل جمهور الجنود، تلك العناصر التي ذهبت مطامحها في الثورة الاجتماعية بعيدا ووجدت تعبيرا عنها في حركة الحفارين5، شكلت خميرة حزب الليفلرز الديموقراطي.

---

[3] -هنا كما في أماكن أخرى من المخطوطة ترد الفقرة على شكل ملاحظات أولية. يشير تعبير «الأممية أداة للسلام» إلى الاعذار التي اختلقها كاوتسكي لافلاس الأممية خلال الحرب. (فالأممية «بوصفها أداة للسلام ليست مناسبة لأوقات الحرب»). ويمكن أيضا أن يشير هذا التعبير إلى أن الأممية بوصفها مسالمة ليست أداة للنضال الثوري. فقد استبدل كاوتسكي النضال الثوري ضد الحرب بالحديث الطوباوي عن نزع السلاح (دون اجتثاث أسباب وجذور الحرب!). واختلق الحجج لدعم عصبة الأمم التي كان يفترض فيهما أن تقضي على الحروب في العالم. وقدم التبريرات «للاشتراكيين» عندما تخلوا عن الأممية ودعموا حكوماتهم والطبقات الحاكمة في بلادهم المختلفة خلال الحرب، وأصبحوا قوميين لا أمميين. وعندما ابتدأ النضال الاشتراكي دافع الشيدمانيون عن الرأسمالية ضد الاشتراكية بالممارسة بينما دافع كاوتسكي عنها في النظرية بالتظاهر بأن «الديموقراطية» الرأسمالية هي الديموقراطية مجردة، وأنه يتوجب الدفاع عنها. ومن هنا فإن النقطة الثالثة التي توردها روزا تعني: الدفاع عن الديموقراطية وكأنها ضد الاشتراكية. مما سبق، يمكن القول أن الفقرة يمكن أن تقرأ بشكل موسع نوعا على النحو التالي: 1- الأممية أداة لزمن السلم فقط وأداة لحفظ السلام. 2- الدفاع عن عقيدة نزع السلاح وإيجاد المبررات لعصبة الأمم وللقومية ضد الأممية. 3- الدفاع عن الديموقراطية وكأنها ضد الاشتراكية.

[4] - الليفلرز ويمكن أن تترجم إلى المساواتيين هم حزب ديموقراطي وجمهوري خلال الحرب الأهلية وفترة الكومنولث، نشأ عام 1645، وطالب بنقل السلطة إلى البرلمان ووضع برنامج إصلاح اقتصادي. وقد أطلق اعداؤهم عليهم هذا الإسم لأنهم اتهموهم بأنهم يريدون أن يسووا بين الناس في الممتلكات.

[5] - الحفارين أو الديغرز حركة سياسية ازدهرت في 1649-1650 بعد اعدام شارل الأول وطالبت بجعل الأرض متاحة لكل الفقراء.

فلم يكن البرلمان الطويل ليطهر من المشيخيين، ولم تكن الحرب مع جيش الفرسان والاسكتلنديين لتنتهي بالنصر، ولم تكن محاكمة شارل الأول لتحدث وتنتهي بإعدامه، ولم يكن مجلس اللوردات لبلغى، ولم تكن الجمهورية لتعلن، لولا التأثير الأخلاقي الذي مارسته العناصر البروليتارية الثورية على جمهور الجنود ولولا الضغط الذي مارسته جمهرة الجنود الديموقراطيين على الشرائح البورجوازية العليا من حزب المستقلين.

وما الذي حدث في الثورة الفرنسية الكبرى؟ هنا وبعد أربع سنوات من النضال، أثبت استيلاء اليعاقبة على السلطة أنه السبيل الوحيد للحفاظ على مكاسب الثورة، لتحقيق الجمهورية، لسحق الاقطاعية، لتنظيم دفاع ثوري ضد الاعداء الخارجيين وكذلك الداخليين، لتحطيم مؤامرات الردة المضادة للثورة، لنشر الموجة الثورية من فرنسا إلى أوروبا كلها.

إن كاوتسكي ورفاقه في العقيدة من الروس، أولئك الذين أرادوا أن تحتفظ الثورة الروسية «بالطابع البورجوازي» لمرحلتها الأولى، هم بالضبط كأولئك الليبراليين الألمان والانجليز الذين كانوا يميزون في القرن الماضي بين مرحلتي الثورة الفرنسية الكبرى الشهيرتين: الثورة «الطيبة» في المرحلة الجيروندية الأولى، والثورة «الخبيثة» بعد انتفاضة اليعاقبة. وبالتأكيد لا يهم هذا المفهوم الليبرالي الضحل للتاريخ أنه حتى الإنجازات الأولى الخجول المترددة التي أحرزت في المرحلة الجيروندية كانت، لولا انتفاضة اليعاقبة «المتصلبين» ستدفن تحت أنقاض الثورة، وأن البديل الحقيقي لديكتاتورية اليعاقبة لم يكن الديموقراطية «المعتدلة» بل عودة ملكية آل بوربون. إذ لا يمكن ل«الوسط الذهبي» أن يعيش في أي ثورة. فقانون طبيعة الثورة ذاته يتطلب القرارات السريعة: فأما أن تسير القاطرة إلى الأمام بأقصى سرعتها إلى أقصى نقاط الصعود التاريخي وأمّا أن تتدحرج إلى الخلف بفعل ثقلها ذاته لتستقر في الحضيض، في نقطة بدايتها الأولى. أمّا أولئك الذين يحاولون بقواهم الضعيفة أن يقبلو القاطرة في منتصف الطريق بين القمة والسهل فسيتدحرجون مع القاطرة إلى الهاوية بلا عودة.

هكذا، فإن من الواضح أن الحزب الذي يستطيع تسلم القيادة والسلطة هو ذلك الحزب الذي يملك الشجاعة الكافية لوضع الشعارات المناسبة لدفع الثورة إلى الأمام والشجاعة كي يستخلص كل الدروس الضرورية من الوضع المعني. وهذا يوضح أيضا الدور التاعس الذي لعبه المناشفة الروس أتباع دان وتسيرتيللي، فقد كان لهؤلاء نفوذ عظيم بين الجماهير في البداية ولكنهم دفعوا خارج الحلبة بعد تذبذبهم الذي طال وبعد أن قاتلوا بأيديهم وأرجلهم ضد تسلم السلطة والمسؤولية.

لقد كان حزب لينين الحزب الوحيد الذي استطاع أن يضع أصبعه على الواجب الملقى على عاتق الحزب الثوري الحقيقي، والذي أمن التطور المستمر للثورة بشعار «كل السلطة للعمال والفلاحين».

هكذا حل البلاشفة المسألة المشهورة، مسألة «كسب» أغلبية الشعب، تلك المسألة التي طالما رزحت بثقلها على صدر الاشتراكية الديموقراطية الألمانية وكأنها كابوس مزعج، لقد كان هؤلاء الاشتراكيون الديموقراطيون الألمان تلامذة لـ«القماءة البرلمانية»[6] بطبعهم فكانوا يسعون إلى تطبيق حكمة تربية الأطفال البرلمانية على الثورات: لكي تفعل أي شيء، عليك أولا أن تحرز الأغلبية. فهم يزعمون أن هذا القانون ينطبق على الثورات: لنحصل أولا على الأغلبية. لكن جدل الثورات يقلب حكمة البغال البرلمانيين هذه رأسا على عقب: ليس عبر الأغلبية إلى التاكتيك الثوري، بل عبر التاكتيك الثوري إلى الأغلبية – هكذا تسير الأمور.

لا يستطيع حزب أن يحرز دعم الجماهيرله في الأوقات العاصفة إلاّ إذا كان حزبا يعرف كيف يقود، أي كيف يدفع بالأمور إلى الأمام. إن التصميم الذي قدم به لينين ورفاقه، في اللحظة الحاسمة، الحل الوحيد الذي يستطيع أن يدفع الأمور الى الأمام (كل السلطة للعمال والفلاحين) هو الذي حولهم في آونة قصيرة من أقلية مضطهدة خارجة عن القانون يختبئ زعيمها كالفأر في الجحر إلى أسياد للموقف بلا منازع.

أكثر من ذلك، وضع البلاشفة كهدف لهذا الاستيلاء على السلطة برنامجا ثوريا طموحا: لا الحفاظ على البورجوازية الديموقراطية بل ديكتاتورية البروليتاريا بهدف تحقيق الاشتراكية. وبهذا كسب البلاشفة لأنفسهم الامتياز التاريخي العظيم الذي لا يفنى، امتياز إعلان تحقيق الهدف الاشتراكي النهائي برنامجا مباشرا للسياسة العملية.

لقد أعطى لينين وتروتسكي والرفاق الآخرون كل ما يمكن أن يعطيه أي حزب كان من الشجاعة وبعد النظر الثوري والثبات في لحظة تاريخية. لقد مثل البلاشفة كل ما كانت تفتقر إليه الاشتراكية الديموقراطية الغربية من شرف ثوري

[6] - تعبير كان ماركس أول من أطلقه على البرلمانيين الذين يظنون أن التاريخ يتقرر بالاقتراحات والأصوات ونقاط النظام في المناقشات البرلمانية.

وقدرة ثورية. فلم تكن انتفاضة اكتوبر الخلاص الفعلي للثورة الروسية فحسب، بل كانت أيضا انقاذا لشرف الاشتراكية العالمية.

2- سياسة البلاشفة تجاه الأرض

البلاشفة هم الورثة التاريخيون للفيلرز (المساواتيين) الإنجليز واليعاقبة الفرنسيين. غير أن المهمة العيانية التي جابهتهم بعد قبضهم على أعنة السلطة كانت أصعب بما لا يقارن من تلك التي جابهت أسلافهم التاريخيين (أهمية المسألة الزراعية. حتى في عام 1905. ثم، في الدوما الثالثة، الفلاحون اليمينيون! مسألة الفلاحين والدفاع، الجيش)7.

لا شك في أن حل هذه المسألة عن طريق استيلاء الفلاحين الفوري المباشر على الأرض وتوزيعها كان المعادلة الأقصر والأبسط والأدق للوصول إلى أمرين مختلفين هما: تحطيم الملكية الكبيرة للأرض، وربط الفلاحين حالا بالحكومة الثورية. كما كان هذا كإجراء سياسي لتحصين الحكومة الاشتراكية البروليتارية خطوة تاكتيكية رائعة. غير أن للمسألة وجهان لسوء الحظ، فالوجه الآخر لها هو أن استيلاء الفلاحين المباشر على الأرض لا يمت إلى الاقتصاد الاشتراكي بصلة على وجه العموم.

إن التحويل الاشتراكي للعلاقات الاقتصادية يفترض مسبقا، في ما يتعلق بالعلاقات الزراعية، أمرين هما:

في المقام الأول، يمكن فقط لتأميم الملكيات العقارية الكبيرة حيث توجد أكثر وسائط وطرق الإنتاج الزراعي تقدما تقنيا وأكثرها تركزا أن يصبح نقطة الانطلاق نحو نمط إنتاج اشتراكي على الأرض. وبالطبع، ليس من الضروري أن ننتزع من الفلاح الصغير قطعة أرضه الصغيرة، بل يمكننا بكل ثقة أن نتركه وشأنه لنكسبه طواعية بالفوائد المتفوقة للانتاج الإشتراكي، ولنقنعه أولا بفوائد الدخول في تعاونيات، ومن ثم في النهاية بفوائد الدخول في الاقتصاد الاشتراكي ككل. بالإضافة إلى ذلك، من الواضح أن كل إصلاح اشتراكي فيما يتعلق بالأرض يجب أن يبدأ بالملكيات الكبيرة والمتوسطة. فهنا يتوجب أن يعطى حق الملكية للأمة أو الدولة، وهما الشيء ذاته في ظل حكومة إشتراكية. ذلك أن هذا وحده هو الذي يعطي الفرصة لتنظيم الإنتاج الزراعي طبقا لمتطلبات الإنتاج الإشتراكي المتشابك الواسع النطاق.

عدا ذلك، وفي المقام الثاني، إن من شروط التحويل الاشتراكي إنهاء الانفصام ما بين الاقتصاد الريفي والصناعة، ذلك الانفصام الذي يشكل خاصية بارزة من خواص المجتمع البورجوازي، إنهاء هذا الانفصام بشكل يؤدي إلى التداخل المتبادل للاقتصادين وذوبانهما ببعضهما، ويفسح المجال لتخطيط الانتاج الزراعي والانتاج الصناعي معا، طبقا لوجهة نظر واحدة موحدة. ومهما كان الشكل الذي سيتخذه كل اجراء اقتصادي عملي على حدة، سواء من خلال العاميات المدينية كما يقترح البعض أو بتوجيه من مركز حكومي، فإن هذه الإجراءات على أي حال يجب أن تسبق بإصلاح يقوم به المركز وهذا يجب أن يستبق بدوره بتأميم الأرض. إن تأميم الملكيات العقارية الكبيرة والمتوسطة الحجم وتوحيد الصناعة والزراعة هما المطلبان الأساسيان لأي اقتصاد اشتراكي وبدونهما لن تكون اشتراكية.

ولكن من يستطيع أن ينحي باللائمة على الحكومة السوفياتية في روسيا لأنها لم تنفذ هذه الإصلاحات العظيمة! إنها حقا لدعابة مؤسفة أن يطلب أو يتوقع من لينين ورفاقه أن يكونوا قد حلوا أو عالجوا واحدة من أعقد مهام التحويل الاشتراكي للمجتمع، بل واعقدها على الإطلاق، في هذه الفترة القصيرة من حكمهم وهم في مركز دوامة عاتية من النضالات المحلية والأجنبية يحيط بهم خصوم وأعداء لا يعدون ولا يحصون. وحتى نحن في الغرب، حيث أكثر الظروف مواتاة، سنضطر حينما نتسلم السلطة إلى كسر الكثير من أسناننا ونحن نحاول أن نكسر هذه الجوزة الصلبة ونستطيع التغلب على آلاف الصعاب المعقدة التي تواجه هذه المهمة العملاقية.

ومهما يكن من أمر، فإن على حكومة اشتراكية في السلطة أن تفعل أمرا واحدا: إن عليها أن تتخذ إجراءات تقود باتجاه هذا الشرط الأساسي لتحويل اشتراكي لاحق للزراعة، وعليها أن تتجنب كل ما من شأنه أن يقف حجر عثرة في سبيل هذه الإجراءات.

غير أن الشعار الذي أطلقه البلاشفة «الاستيلاء الفوري على الأرض وتوزيعها من جانب الفلاحين» يدفع بالضرورة في الاتجاه الآخر. فهذا ليس إجراءا اشتراكيا، بل هو يذهب إلى حد قطع الطريق على الإجراءات الاشتراكية، فهو يضع عراقيل لا يمكن تخطيها في سبيل التحويل الاشتراكي للعلاقات الزراعية.

إن استيلاء الفلاحين على الملكيات العقارية طبقا لشعار لينين وأصدقائه القصير والدقيق «خذوا الأرض لأنفسكم» أدى ببساطة إلى التحويل الفجائي الفوضوي للملكية الكبيرة للأرض إلى ملكية فلاحية. ولم ينتج عن ذلك ملكية اشتراكية، بل شكل جديد من أشكال الملكية الخاصة. وبالتحديد أدى ذلك إلى تفتيت الملكيات الكبيرة إلى ملكيات متوسطة وصغيرة، أي أن وحدات انتاجية كبيرة متقدمة نسبيا تحولت إلى وحدات صغيرة بدائية تعمل بوسائل تقنية تعود إلى عصر الفراعنة.

---

[7] - هكذا في النص الأصلي على شكل ملاحظات. لكن المقصود واضح.

وليس هذا كل ما في الأمر! إذ أن التمايز في ملكية الأرض لم يلغ من خلال هذه الإجراءات والطريقة الفوضوية والكيفية البحتة التي نفذت بها، بل على العكس من ذلك ازدادت هذه التمايزات حدة. فعلى الرغم من أن البلاشفة قد حثوا الفلاحين على تشكيل لجان فلاحية حتى يصبح الاستيلاء على أملاك النبلاء عملا جماعيا بطريقة ما، إلاّ أن من الواضح أن هذه النصيحة العامة لم تكن لتغير من الممارسة الحقيقية ولا من العلاقات الحقيقية للقوى شيئا. فالفلاحون الفقراء والمرابون الذين يشكلون بورجوازية القرية هم الذين يملكون القوة الحقيقية في كل قرية روسية، وهم الذين أصبحوا بكل تأكيد أكبر المستفيدين من الثورة الزراعية. وليس المرء بحاجة لأن يكون هناك بنفسه، ليستنتج أن التفاوت الاجتماعي والاقتصادي بين الفلاحين لم يقض عليه خلال عملية توزيع الأرض بل إنه قد زاد، كما أن التناقض الطبقي ازداد حدة. ومهما يكن من أمر، فإن هذا التحول في ميزان القوى لم يكن لصالح البروليتاريا ولا لصالح الاشتراكية. ففي السابق لم يكن هناك من يعادي إصلاحا اشتراكيا للأرض سوى شريحة صغيرة من ملاكي الأرض النبلاء والرأسماليين وأقلية صغرى من البورجوازيين القرويين الأغنياء. وتجريد هؤلاء من الملكية على يد حركة جماهيرية ثورية بسيط بساطة لعب الأطفال. أمّا الآن وبعد عمليات «الاستيلاء» فإن أي محاولة لتشريك الانتاج الزراعي ستواجه بجماهير غفيرة وقوية من الفلاحين الملاك حديثي التكوين، وسيدافع هؤلاء بأنيابهم وأظفارهم عن الملكية التي استحوذوا عليها حديثا ضد كل هجوم اشتراكي. لقد أصبحت مسألة تشريك الاقتصاد الزراعي في المستقبل، أي مسألة كل تشريك للانتاج بشكل عام في روسيا، أصبحت مسألة تعارض وصدام بين البروليتاريا المدينية وجماهير الفلاحين. وليس أدل على درجة الحدة التي وصل إليها هذا التناقض من مقاطعة الفلاحين للمدن، تلك المقاطعة التي حجبوا فيها وسائل الحياة للدخول بها في مضاربات تماما كما يفعل اليونكر البروسي.

لقد أصبح الفلاح الفرنسي الصغير اجرأ الذائدين عن الثورة الفرنسية الكبرى التي أعطته الأرض المصادرة من المهاجرين. فحمل هذا الفلاح كجندي نابوليوني علم فرنسا إلى النصر، وقطع كل أوروبا يحطم الإقطاعية نتفا في أرض إثر أخرى. ولربما توقع لبنين وأصدقاؤه نتيجة مشابهة لشعارهم الزراعي. غير أن الفلاح الروسي الآن، وبعد أن أحكم قبضته على الأرض، لا يحلم بالدفاع عن روسيا وعن الثورة التي يدين لها بالأرض، فهو قد تمترس في ممتلكاته تاركا الثورة لأعدائها، والدولة للتحلل، وسكان المدن للمجاعة.

(خطبة لينين في ضرورة مركزة الصناعة وتأميم البنوك والتجارة والصناعة. ولم ليس الزراعة؟ هنا على العكس لا مركزية وملكية خاصة.

(لقد كان برنامج لينين الزراعي قبل الثورة مختلفا. الشعار المأخوذ عن الاشتراكيين الثوريين المدانين، أو بالأحرى عن حركة الفلاحين العفوية.

(تحاول الحكومة السوفياتية الآن، لكي تدخل المبادئ الاشتراكية إلى العلاقات الزراعية، ان تنشئ عاميات من بروليتاريين في معظمهم عاطلين عن العمل في المدينة. ولكن من السهل أن نرى سلفا أن نتائج هذه الجهود ستبقى غير ذات بال عندما تقاس بالصورة الكلية للعلاقات الزراعية. بعد نقاط الانطلاق المناسبة نحو اقتصاد اشتراكي، فتتت الملكيات الكبيرة إلى وحدات صغيرة، والآن يحاولون بناء وحدات إنتاج شيوعية نموذجية من بدايات تافهة. ولا يمكن الادعاء في ظل هذه الظروف أن العاميات إصلاح إجتماعي شامل، فهي مجرد تجارب. احتكار الحبوب ومحاصيل الغلال. الآن، وبعد أن وقعت الواقعة يريدون إدخال الحرب الطبقية إلى القرية!)[8].

لقد خلق الاصلاح الزراعي اللينيني في الريف شريحة جديدة وقوية من الأعداء الشعبيين للاشتراكية، أعداء ستكون مقاومتهم أخطر وأكثر عنادا بكثير من تلك التي أبداها ملاك الأرض الكبار النبلاء.

[8] - هنا أيضا النص على شكل ملاحظة.

3- مسألة القوميات

إن البلاشفة مسؤولون جزئيا عن تحول الهزيمة العسكرية إلى انهيار وتحلل روسيا. عدا ذلك، جعل البلاشفة ذاتهم الصعوبات الموضوعية للوضع تحتد وتتفاقم إلى حد بعيد برفعهم شعارا وضعوه في مقدمة سياساتهم: ذاك هو الشعار المسمى بحق الشعوب في تقرير مصيرها، أو بما كان في الحقيقة متضمنا في هذا الشعار، أي تفسخ روسيا.

لقد قام لينين ورفاقه بالمناداة ثانية بعناد مذهبي بمعادلة حق القوميات المختلفة في الامبراطورية الروسية بتقرير مصيرها بصورة مستقلة «إلى حد الانفصال الحكومي عن روسيا»، واستخدموا هذه المعادلة كصرخة حرب خلال معارضتهم للميليكوفيين (نسبة إلى ميليكوف) ومن ثم للإمبريالية الكيرنسكية (نسبة إلى كيرنسكي)9. كما أنها شكلت محور سياسة البلاشفة الداخلية بعد ثورة أكتوبر، وشكلت برنامجهم كله في بريست-ليتوفسك وكانت كل ما بوسعهم أن يعارضوا به عرض القوة الذي قامت به الامبريالية الألمانية.

ولا يملك المرء إلاّ أن يفاجأ فورا بالعناد والمثابرة الصلبة اللذين أصر بهما لينين ورفاقه على هذا الشعار، وهو الشعار الذي يتعارض بحدة مع مركزيتهم المعلنة في غير ذلك من مسائل السياسة تعارضه مع الاتجاه الذي اتخذوه حيال المبادئ الديموقراطية الأخرى. فبينما أظهر البلاشفة احتقارا مشوبا بالبرود تجاه الجمعية التأسيسية وحق الاقتراع العام وحرية الصحافة والاجتماع، وباختصار تجاه كل منظومة الحريات الديموقراطية الأساسية للشعب، التي تشكل مأخوذة مع بعضها ككل «حق تقرير المصير» داخل روسيا، في حين فعل البلاشفة ذلك فإنهم تعاملوا مع حق الشعوب في تقرير مصيرها وكأنه جوهرة من درر السياسة الديموقراطية يجب أن تخمد في سبيلها كل الاعتبارات العملية التي يثيرها النقد الحقيقي. وبينما لم يسمح البلاشفة لأنفسهم أن يخدعوا ولو مثقال ذرة بالاستفتاء العام للجمعية التأسيسية في روسيا، ذلك الاستفتاء الذي جرى على أساس أكثر الاقتراعات ديموقراطية في العالم وفي ظل الحرية الكاملة الممنوحة في جمهورية شعبية، بينما أعلنوا بكل بساطة أن هذا الإقتراع باطل وزور بناء على تقييم جد رصين لنتائجه، فإنهم دافعوا بحماسة عن «التصويت الشعبي» للقوميات الأجنبية في روسيا حول مسألة أي بلد يريد هؤلاء أن ينتموا له، معتبرين أن هذا التصويت يمثل الهة حكمة كل الحريات وكل الديموقراطية والماهية الطهور لإرادة الشعوب والمحكمة ذات القول الفصل في مسائل المصير السياسي للأمم.

ويصبح التناقض الواضح هنا أكثر استعصاء على الفهم، عندما نعلم أن الأشكال الديموقراطية للحياة السياسية في كل بلد تتضمن فعلا، وكما سنرى، اسسا قيمة لا غنى عنها للسياسة الاشتراكية، في حين أن «حق الأمم في تقرير مصيرها» ليس إلاّ ثرثرة بورجوازية صغيرة فارغة وخداعا مرائيا.

ما الذي يفترض في هذا الحق أن يمثله فعلا؟ إن من بدهيات السياسة الاشتراكية أن الإشتراكية تعارض كل أشكال القهر، بما فيها قهر أمة لأخرى.

أما إذا كان ساسة رصينون ونقادون بشكل عام كلينين وتروتسكي وأصدقائهما، أولئك الذين لم يجابهوا كل أنواع الجمل الطوباوية كنزع السلاح وعصبة الأمم إلاّ بالسخرية اللامبالية، إذا كان هؤلاء قد جعلوا في هذه الحالة من جملة فارغة من النوع ذاته تماما هواية خاصة لهم، فإن ذلك قد نجم، على ما يبدو لنا، نتيجة سياسة معينة صنعت خصيصا للمناسبة.

إذ يبدو أن لينين ورفاقه قد حسبوا أنه ليس هناك من طريقة لربط الشعوب الأجنبية الكثيرة داخل الامبراطورية الروسية بقضية الثورة وقضية البروليتاريا الإشتراكية أضمن من منحهم، باسم الثورة والاشتراكية، الحرية الكاملة إلى حد متطرف ليقرروا مصيرهم بأنفسهم. وهذا مماثل لسياسة البلاشفة تجاه الفلاحين الروس الذين أشبع جوعهم للأرض بشعار الاستيلاء المباشر على ملكيات النبلاء العقارية، والذين افترض فيهم أن ينضووا بذلك تحت لواء الثورة والحكومة البروليتارية. ولكن لسوء الحظ كان الحساب خاطئا في كلا الحالين.

ففي حين توقع لينين ورفاقه، كما هو واضح، أنهم بكونهم أبطال الحرية القومية إلى حد «الإنفصال» سيحولون فنلندا وأوكرانيا وبولندا وليتوانيا وأقطار البلطيق والقوقاز الخ إلى حلفاء كثر للثورة الروسية، إلاّ أننا شاهدنا العكس. فقد استخدمت هذه الأمم واحدة تلو الأخرى الحرية الطازجة الممنوحة لها لتتحالف مع الامبريالية الألمانية ضد الثورة الروسية، معتبرة الثورة عدوها اللدود وحملت، تحت الحماية الألمانية، لواء الردة المضادة للثورة إلى داخل روسيا ذاتها. وخير دليل على ذلك، لعبة أوكرانيا في بريست ليتوفسك، اللعبة الصغيرة التي أحدثت إنعطافا حاسما في تلك

---

9 - جاءت حكومة ميليكوف وكيرنسكي بعد سقوط القيصر في الشهر الأول من عام 1917 وقبل انتصار ثورة أكتوبر. وحاولت كل من هاتين الحكومتين الاستمرار في الحرب من أجل الأهداف الإمبريالية للإمبراطورية الروسية القديمة وأنكرت حق الأقليات القومية في الانفصال عن روسيا.

المحادثات وسببت كل الحالة السياسية الداخلية والخارجية السائدة الآن والتي تواجه البلاشفة. أمّا سلوك فنلندا و بولندا وليتوانيا وبلاد البلطيق وشعوب القفقاس فيبين بصورة جد مقنعة أننا لا نعالج هنا حالة شاذة بل ظاهرة نموذجية.
من المؤكد أنه في كل الحالات التي ذكرنا، لم يكن «الشعب» هو الذي اتبع حقا هذه السياسات الرجعية، بل اتبعتها الطبقتان البورجوازية والبورجوازية الصغيرة فقط اللتان في تضادهما الحاد مع جماهيرهما البروليتارية ذاتها، حرفتا «حق تقرير المصير» وجعلتا منه أداة في يد سياستهما الطبقية المناهضة للثورة. ولكننا هنا نأتي إلى لب المسألة، ففي هذا يكمن الطابع الطوباوي البورجوازي الصغير لهذا الشعار القومي: فهو يتحول، في خضم الوقائع الفظة للمجتمع الطبقي وحين تكون التناقضات الطبقية قد وصلت أعلى درجات الحدة، إلى وسيلة للحكم الطبقي البورجوازي. فكان أن تعلم البلاشفة بما أصابهم وأصاب الثورة من آلام جسيمة أنه ليس هناك من حق تقرير مصير للشعوب في ظل الحكم الرأسمالي، وأن كل طبقة من طبقات الأمة في المجتمع الطبقي تكافح لـ«تحقق ذاتها ومصيرها» بطريقة مختلفة، وأن الحرية القومية بالنسبة للطبقات البورجوازية خاضعة تمام الخضوع لمصالح الحكم الطبقي. لذا فضلت البورجوازية الفنلندية بالإجماع، كما البورجوازية الأوكرانية، حكم ألمانيا العنيف على الحرية القومية، إذا كانت هذه الحرية سترتبط بالبلشفية.
إن الأمل في تحويل هذه العلاقات الطبقية الواقعية بشكل ما إلى نقيضها وإحراز موافقة بأغلبية الأصوات على الاتحاد مع الثورة الروسية، بالاعتماد على الجماهير الثورية –إذا كان هذا ما يعنيه بحد كل من لينين وتروتسكي- يمثل درجة من التفاؤل تستعصي على الفهم. أما إذا كان المقصود فحسب حركة تاكتيكية بارعة في المبارزة مع سياسة القوة الألمانية، فإن ذلك يصبح إذ ذاك لعبا خطيرا بالنار. إذ أن «الاستفتاء الجماهيري»، لو تم الوصول إليه في دول الحدود، لما أدى في كل الاحتمالات إلى نتيجة تبعث البهجة في قلوب البلاشفة، حتى بدون الاحتلال الألماني. ذلك أننا يجب أن نأخذ بالحسبان سيكولوجية الجماهير الفلاحية وقطاعات كبيرة من البورجوازية الصغيرة، وآلاف الوسائل التي تستطيع البورجوازية أن تؤثر بها على الاقتراع. في الواقع، نستطيع القول فيما يتعلق بالاستفتاءات على المسائل القومية من هذا القبيل، إن القاعدة التي لا تخرق هي أن الطبقات الحاكمة إما أن تجد وسيلة لمنعها إذا كانت لا تناسب أغراضها، أو أنها ستعرف بطريقة ما كيف تؤثر على نتائج هذه الاستفتاءات، عندما تحدث، بكل أنواع الوسائل الصغيرة منها والكبيرة، تلك الوسائل ذاتها التي تجعل تحقيق الاشتراكية بالتصويت الشعبي أمرا مستحيلا.
لقد ادخلت مسألة المطامح القومية والميول الانفصالية في وسط النضال الثوري، بل أنها دفعت إلى مقدمته لتصبح الشعار المميز للسياسة الاشتراكية والثورية بعد صلح بريست ليتوفسك، وقد أدت هذه الحقيقة بحد ذاتها إلى تشوش بالغ في صفوف الاشتراكيين واضعفت في الواقع موقف البروليتاريا في بلاد الحدود.
ففي فنلندا، ظلت البروليتاريا الإشتراكية في موقع القوة المسيطرة، طيلة الوقت الذي حاربت فيه كفصيل من الجيش الثوري الروسي العظيم، فقد كان لها الأغلبية في البرلمان الفنلندي وفي الجيش وجعلت من البورجوازية الفنلندية قوة عقيمة وأصبحت سيدة الموقف ضمن الحدود الفنلندية.
أو لنأخذ أوكرانيا مثلا. في بداية القرن، وقبل أن ينشب جنون «القومية الأوكرانية» بروبلاتها الفضية والبيانات التي تصدرها الجمعية الوطنية الأوكرانية، وقبل أن يخترع لينين هوايته المفضلة «أوكرانيا المستقلة»، كانت أوكرانيا قلعة الحركة الثورية الروسية. فمن أوديسا ومن روستوف ومن منطقة الدونيتز اندلعت الحمم البركانية الأولى للثورة (في وقت مبكر يعود إلى 1902-1904) التي أشعلت جنوب روسيا كله وجعلته بحرا من اللهيب ممهدة السبيل أمام ثورة 1905. وتكرر الأمر ذاته في الثورة الراهنة التي زودت فيها بروليتاريا جنوب روسيا الجيش البروليتاري بأفضل قواته. وقد كانت بولندا والبلطيق منذ 1905 أقوى وأوثق معاقل الثورة، ولعبت البروليتاريا الاشتراكية فيهما دورا بارزا.
فكيف تنتصر الثورة المضادة في كل هذه البلدان فجأة؟ لقد انتزعت الحركة القومية بروليتاريا هذه البلدان من روسيا وبذلك أقعدتها وسلمتها لقمة سانغة للبورجوازية في بلدان الحدود.
وبدلا من أن يختلط البلاشفة في هذه المسألة السياسية الطبقية الأممية الصادقة التي اختطوها في المسائل الأخرى، بدلا من أن يعملوا من أجل وحدة كل القوى الثورية على امتداد مساحة الامبراطورية وحدة صلبة، بدلا من أن يدافعوا بأنيابهم وأظفارهم عن وحدة أراضي الامبراطورية الروسية كأرض للثورة ويعارضوا كل أشكال الإنفصالية بتضامن بروليتاريي كل البلدان في الامبراطورية ضمن الثورة الروسية وذلك كهدف رفيع لكل السياسة البلشفية، بدلا من ذلك فعل البلاشفة، بكلامهم القومي الفارغ عن «حق الأمم في تقرير مصيرها إلى حد الانفصال»، العكس تماما وزودوا

البورجوازية في كل بلدان الحدود بأفضل ذريعة للجهود المضادة للثورة وأفضل لواء تنضوي تحته. وبدلا من أن يحذر البلاشفة بروليتاريي بلدان الحدود من كل نوع من أنواع الانفصالية لكونها أفخاخا تنصبها البورجوازية، فإنهم لم يفعلوا غير تشويش الجماهير في بلدان الحدود بهذا الشعار وأسلموها لديماغوجية الطبقات البورجوازية. لقد سبب البلاشفة بهذا الشعار القومي تفسخ روسيا ذاتها، وأعطوا للعدو سلاحا أغمده في قلب الثورة الروسية.

لا شك أن جماعة لوتبسكي وغيرهم من أوغاد أوكرانيا، وجماعة إيريك ومانرهايم في فنلندة، وبارونات البلطيق، ما كانوا ليستطيعوا اقتناص الجماهير الاشتراكية في هذه البلدان لولا مساعدة الامبريالية الألمانية، دون «البنادق الألمانية في القبضات الألمانية» كما يقول كاوتسكي في «نيوزايت». لكن الانفصالية القومية كانت حصان طروادة الذي تسلل به «الرفاق» الألمان وحرابهم في أيديهم إلى كل البلدان. لقد كانت التناقضات الطبقية العدائية وعلاقات القوى العسكرية هي التي سببت التدخل الألماني، لكن البلاشفة هم الذين صنعوا الغطاء الأيديولوجي لحملة الثورة المضادة هذه، فقووا بذلك موقف البورجوازية واضعفوا موقف البروليتاريا.

إن البرهان الأفضل على ذلك هو حالة أوكرانيا، التي قدر لها أن تلعب دورا مريعا في تحديد مصير الثورة الروسية. كانت القومية الأوكرانية مختلفة جدا عن القوميات التشيكية أو البولندية أو الفنلندية مثلا، فالقومية الأوكرانية ليست أكثر من نزوة وحماقة ارتكبها بضع عشرات من المثقفين البورجوازيين الصغار، فلم يكن لها أدنى جذور في العلاقات الاقتصادية أو السياسية أو النفسية لأوكرانيا، كما لم يكن لها أي تقليد تاريخي، إذ أن أوكرانيا لم تشكل من قبل دولة أو حكومة ولم يكن لها ثقافة قومية عدا بضعة القصائد الرومانسية الرجعية التي كتبها شيفشنكو. فجاء لينين ورفاقه بتحريضهم العقيدي فيما يتعلق بـ«حق تقرير الأمم لمصيرها... الخ» ليضخموا هذا الموقف السخيف الذي كان يقفه بضعة طلبة وأساتذة جامعيين ويجعلوا منه قوة سياسية. وأعطوا لما كان في البداية مجرد تهريج أهمية قصوى جعلت منه مسألة على قدر بالغ من الأهمية – لا كحركة قومية جدية لم يكن لها من بعد كما من قبل أية جذور على الإطلاق بل كلواء تنضوي تحته الثورة المضادة! وفي بريست ليتوفسك ومن هذه البيضة الفاسدة زحفت الحراب الألمانية.

هناك أوقات تصبح فيها أمثال هذه الجمل ذات معنى حقيقي جدا في تاريخ الصراع الطبقي. ومن سوء حظ الاشتراكية أنه قدر لها في هذه الحرب العالمية أن تزود السياسة المضادة للثورة بحجب أيديولوجية. ففي بداية الحرب سارعت الاشتراكية الديموقراطية الألمانية إلى تزويد حملة الامبريالية الألمانية بدرع أيديولوجي استخرجته من مخزن الماركسية فأعلنت أن هذه الحملة حملة تحرير ضد القيصرية الروسية كما كان معلمانا (ماركس وإنجلز) يأملان. وكان قدر البلاشفة، الذين كانوا المعارضين الصلبين للاشتراكيين الحكوميين عندنا، أن يضعوا الحب في طاحون الثورة المضادة بالجمل التي أطلقوها عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، وبذلك لم يقدم البلاشفة الايديولوجية لخنق الثورة الروسية ذاتها فحسب، بل أيضا لخطط تسوية الأزمة الناشبة عن الحرب العالمية.

إن لدينا من الأسباب ما يدفعنا لتفحص سياسات البلاشفة في هذا المجال بحرص شديد يشكل «حق تقرير المصير» مقترنا بعصبة الأمم ونزع السلاح، وتلك جميعا أنعم علينا بها الرئيس ويلسون، صرخة الحرب التي ستسوي في ظلها الحسابات بين الاشتراكية الأممية والبورجوازية. ومن الواضح أن الجمل المتعلقة بحق تقرير المصير والحركة القومية كلها، وهي التي تشكل اليوم أكبر خطر على الاشتراكية الأممية، استمدت قوة فائقة من الثورة الروسية ومفاوضات بريست ليتوفسك. لا يزال علينا أن نتفحص هذا البرنامج تفحصا كاملا. فالمصير المأسوي الذي لقيته هذه الجمل في الثورة الروسية والتي قدر للبلاشفة أنفسهم أن يقعوا في فخها المدبب فيدموا أجسادهم، يجب أن يكون درسا وتحذيرا للبروليتاريا العالمية كلها.

لقد كانت ديكتاتورية المانيا منذ معاهدة بريست ليتوفسك وحتى «المعاهدة المكملة» نتيجة لكل هذه الأمور. كذلك كانت ضحايا التكفير المئتين نتيجة لها. ومن هذا الوضع نجم الإرهاب وقمع الديموقراطية10.

[10] - بعد توقيع معاهدة بريست بستة أسابيع وقعت المعاهدة المكملة قد تكون «ضحايا التفكير المئتين» إشارة إلى إعدام المتهمين بالتواطؤ في اغتيال السفير الألماني في موسكو، كونت فون ميرباخ. فقد قتل ارهابيو الحزب الاشتراكي الثوري ميرباخ، وكان هذا الحزب، أو على الأصح جناحه اليساري، يتعاون مع البلاشفة حتى توقيع معاهدة بريست، ولكنه انفصل عن البلاشفة احتجاجا على المعاهدة وعاداهم.

4- الجمعية التأسيسية

لنتفحص هذه المسألة أكثر من ذلك بأخذ بضعة أمثلة.

لقد لعب حل الجمعية التأسيسية المشهور في (تشرين الثاني) نوفمبر 1917 دورا بارزا في سياسة البلاشفة. فقد كان هذا الإجراء ذو أهمية حاسمة بالنسبة لموقفهم المقبل، وكان يمثل إلى حد ما نقطة انعطاف في تاكتيكهم.

إنها لحقيقة أن لينين ورفاقه كانوا إلى انتصارهم في أكتوبر يطالبون بقوة وجلبة بعقد الجمعية التأسيسية، وأن سياسة حكومة كرينسكي في إرجاء هذه المسألة كانت احدى نقاط الاتهام التي وجهها البلاشفة لهذه الحكومة وشكلت أساس بعض أعنف هجماتهم عليها. يقول تروتسكي في نشرته الممتعة «من أكتوبر إلى بريست ليتوفسك» أن ثورة أوكتوبر مثلت «خلاص الجمعية التأسيسية» كما مثلت خلاص الثورة ككل. ويضيف قائلا «وعندما قلنا أن المدخل إلى الجمعية التأسيسية لا يمكن الوصول إليه عبر برلمان تسرتيللي الأولي، بل فقط عبر استيلاء السوفيتات على السلطة، كنا على حق تماما».

بعد ذلك، وبعد كل هذه التصريحات، كانت خطوة لينين الأولى بعد ثورة أكتوبر... حل هذه الجمعية التأسيسية ذاتها، التي كان يفترض في الثورة أن تكون مدخلا لها[11]. فماذا يمكن أن تكون الأسباب الحاسمة التي أدت إلى انعطاف مثير للدهشة إلى هذا الحد؟ يبحث تروتسكي هذه المسألة في نشرته المذكورة بحثا وافيا، وسنورد هنا حجته:

«بينما شهدت الأشهر التي سبقت ثورة أكتوبر حركة إلى اليسار من جانب الجماهير واندفاعا أوليا من جانب العمال والجنود والفلاحين باتجاه البلاشفة، عبرت هذه العملية عن نفسها داخل الحزب الاشتراكي الثوري بتعزز الجناح اليساري على حساب اليمين. ولكن أسماء الجناح اليميني القديمة كانت لا تزال تحتل ثلاثة أرباع قائمة مرشحي الحزب...

«ثم كانت حادثة إجراء الانتخابات خلال الأسابيع الأولى لثورة أكتوبر. وانتشرت أنباء التغيير الذي طرأ وعلى شكل دوائر موحدة المركز من العاصمة إلى الأقاليم ومن المدن إلى القرى، وببطء نوع ما. ولم تكن جماهير الفلاحين لتعرف سوى القليل عما كان يدور في موسكو وبتروغراد. فصوتت «للأرض والحرية» وانتخبت أولئك الذين كانوا يقفون تحت لواء «النارودنيين[12] (الشعبيين)» ممثلين لها في لجان الأرض. غير أنهم بذلك قد صوتوا لكرينسكي وافكنستييف اللذين كانا يحلان لجان الأرض هذه ويلقيان القبض على أعضائها... إن هذا كله يقدم فكرة واضحة عن المدى الذي تخلفت به الجمعية التأسيسية عن تطور النضال السياسي وتطور التحالفات الحزبية».

كل هذا جميل جدا ومقنع. ولكن المرء لا يملك إلا أن يتساءل كيف أمكن لذكيين كلينين وتروتسكي أن يفشلا في الوصول إلى النتيجة التي تستتبعها الحقائق السالفة مباشرة. ما دامت الجمعية التأسيسية قد انتخبت قبل نقطة الانعطاف الحاسمة –ثورة أكتوبر- بردح من الزمن[13]، وما دام تركيبها قد عكس صورة الماضي الذي انقضى وليس الحالة الراهنة للأمور، فإن النتيجة التي تتبع أوتوماتيكيا هي أن الجمعية التأسيسية التي شاخت، وبالتالي ولدت ميتة، كان يجب أن تلغى دون تأخير لتتخذ الترتيبات لإجراء انتخابات لجمعية تأسيسية جديدة. فلم يكن لينين وتروتسكي يريدان، وكان يجب أن لا يريدا، وضع مصير الثورة في أيدي جمعية تعكس روسيا الماضي، روسيا كيرينسكي، روسيا فترة التذبذب والتحالف مع البورجوازية. من هنا لم يتبق ما يفعل سوى دعوة جمعية تأسيسية تطلق روسيا الجديدة التي تخطت الجمعية الأولى.

بدلا من ذلك، يقوم تروتسكي، منطلقا من الحالة الخاصة، حالة عدم كفاية الجمعية التأسيسية التي انعقدت في اكتوبر، باستخلاص نتيجة عامة تتعلق بعدم كفاية أي تمثيل شعبي ينجم عن الاقتراع الشعبي العام خلال الثورة.

فهو يكتب قائلا «بفضل النضال المفتوح والمباشر من أجل السلطة الحكومية، تراكم الجماهير كمية هائلة من الخبرة السياسية بأسرع وقت، وتصعد بسرعة درجة إثر أخرى من درجات تطورها السياسي. فكلما كان البلد أكبر وكلما كان جهازه التقني أكثر بدائية، كلما قل تعقيد آلية المؤسسات الديموقراطية القادرة على مرافقة خطى هذه التطور».

هنا نجد شكا بـ«آلية المؤسسات الديموقراطية». وهنا علينا أن نعترض على ذلك في الحال، إذ أن هذا التقدير للمؤسسات التمثيلية يتضمن مفهوما تخطيطيا جامدا تخالفه بصراحة التجربة التاريخية لكل مرحلة ثورية. فطبقا لنظرية

---

[11] - حلت الجمعية التأسيسية في جلستها الأولى في (كانون الثاني) نوفمبر 1917

[12] - النارودنيون اسم كان يطلق في ذلك الحين على حزب الاشتراكيين الثوريين الذي دعم كحزب كرينسكي وعارض ثورة أكتوبر.

[13] - تخطئ روزا لوكسمبورغ هنا، فالصحيح أن الترتيبات لانتخاب الجمعية التأسيسية اتخذت قبل ثورة أكتوبر، ولكن الانتخاب ذاته وقع بعد الثورة مباشرة.

تروتسكي، تعكس كل جمعية منتخبة التركيب العقلي والنضج السياسي، لناخبيها كما تعكس مزاجهم لحظة ذهابهم إلى مركز الاقتراع. والجسم الديموقراطي، تبعا لذلك، انعكاس للجماهير في نهاية فترة الاقتراع، كما أن السماوات لا تبدي لنا الأجسام السماوية كما هي عندما ننظر اليها بل كما كانت لحظة أشعت نورها عبر الفراغ الشاسع الذي لا يقاس. بذلك ينكر تروتسكي أي رابط عقلي حي بين الممثلين بعد إنتخابهم وبين جمهور الناخبين، كما ينكر أي تفاعل دائم بينهما.

ولكن كثر ما تناقض التجربة التاريخية هذا! إذ أن التجربة تبين العكس، إنها تبين بالتحديد أن سيلا حيا من المزاج الجماهيري يدور حول الهيئات التمثيلية ويتخللها ويهديها. وإلاّ كيف أمكن لنا، كلما اشتد الهيجان في المصانع والمشاغل والشوارع، أن نشاهد، كما يحدث أحيانا، في كل برلمان بورجوازي، طفرات «ممثلي الشعب» المسلية عندما يلهم هؤلاء فجأة بـ«روح» جديدة فيطلقون أصواتا غير متوقعة إطلاقا، وكيف أمكن لنا حينئذ أن نجد أكثر الموميات جفافا يتصرف بحيوية الشباب، وأن نجد الشيدمانيين الصغار14 على اختلاف أنواعهم يكتشفون حناجرهم أنغاما ثورية؟

فهل نتخلى، في خضم الثورة، عن هذا التأثير الحي أبدا الذي يمارسه مزاج الجماهير ودرجة نضجها السياسي على الهيئات التمثيلية، لنستبدله بتخطيط هيكلي متصلب من الشعارات والبطاقات الحزبية؟ كلا، على العكس! ذلك أن الثورة بالضبط تخلق بحرارتها المتوهجة الجو السياسي الحساس المرهف النابض بالحياة الذي تؤثر عبره أمواج الشعور الشعبي ونبضات الحياة الشعبية على الهيئات التمثيلية بطريقة جد رائعة. هذه هي بالتأكيد الحقيقة التي تقف خلف المشاهد المؤثرة المعروفة جيدا التي تحدث باستمرار في المراحل الأولى لكل ثورة، تلك المشاهد التي نرى فيها الرجعيين القدامى أو المتطرفين في اعتدالهم، الذين تحدروا عن انتخابات برلمانية جرت بالاقتراع المحدود في ظل النظام القديم، يتحولون فجأة إلى ناطقين عنيفين بطوليين باسم الانتفاضة. والمثال الكلاسيكي على ذلك هو «البرلمان الطويل» في إنجلترا، ذلك البرلمان الذي انتخب وانعقد في العام 1642 وبقي طوال سنوات سبع كاملة يعكس في حياته الداخلية كل تحولات وتبدلات المزاج الجماهيري والنضج السياسي والتمايز الطبقي، يعكس تقدم الثورة إلى ذروتها، من المناوشات الأولية الخانعة مع العرش في ظل رئيس للبرلمان بقي جاثما على ركبته إلى إلغاء مجلس اللوردات وإعدام شارل الأول وإعلان الجمهورية.

ألم يتكرر التحول الرائع ذاته في Trench Estates General وفي برلمان لويس فليب الخاضع للرقابة وحتى في الدوما الروسية الرابعة15 –وهذا المثال الأخير البارز قريب العهد إلى تروتسكي- التي انتخبت في العام 1909 في ظل أقسى حكم مضاد للثورة، والتي شعرت فجأة بالحرارة المتوهجة للانعطاف الوشيك فأصبحت نقطة انطلاق الثورة؟

كل هذا يبين أن «الآلية البطيئة للمؤسسات الديموقراطية» تملك مصححا جبارا، هو بالتحديد زخم الجماهير الحي وضغطها الذي لا ينقضي. وكلما كانت هذه المؤسسات أكثر ديموقراطية، كلما كانت نبضات حياة الجماهير السياسية أقوى وأكثر حيوية، وكلما كان تأثيرها أكمل وأكثر مباشرة، على الرغم من الشعارات الحزبية الجامدة والبطاقات التي عفا عليها الدهر (القوائم الانتخابية) الخ.من المؤكد أن لكل مؤسسة ديموقراطية حدودها ونقائصها، وهذا ما تشترك فيه بلا شك مع كل المؤسسات الإنسانية الأخرى. لكن العلاج الذي إختاره لينين وتروتسكي ، وهو الغاء الديمقراطية بما هي أسوأ من المرض الذي يفترض هذا العلاج أن يشفيه، ذلك أنه يقضي على المصدر الوحيد الذي يستطيع تصحيح كل مواطن الضعف المتأصلة في المؤسسات الاجتماعية. هذا المصدر هو عيش أوسع جماهير الشعب حياة سياسية فعالة نشيطة لا يعوقها قيد.

[14] - «الشيدمانيون الصغار»اسم مسرحية يشير إلى فيليب شيدمان الاشتراكي الديموقراطي الحكومي الألماني في فترة ما بعد الحرب العالمية.

[15] - بعد التظاهرات الشعبية في(شباط) فبراير 1917، أرسلت هذه الدوما الرابعة مبعوثين إلى القيصر ليطلبا منه التخلي عن العرش.

5- مسألة الاقتراع

لنأخذ مثلا بارزا آخر: حق الاقتراع كما وضعته الحكومة السوفياتية. ليس واضحا تماما ما هي الأهمية العملية التي عزيت لحق الاقتراع هذا. إذ يبدو من نقد لينين وتروتسكي للمؤسسات الديموقراطية أنهما يرفضان التمثيل الشعبي على أساس الاقتراع العام كمسألة مبدأ، وأنهما يريدان أن يعتمدا على السوفياتات فقط. فلماذا، إذن، وضع نظام الاقتراع العام على الإطلاق؟ هذا ليس واضحا حقا. وليس معروفا لدينا ما إذا كان حق الاقتراع هذا قد مورس في مكان ما، فنحن لم نسمع أن انتخابات لأي هيئة تمثيل شعبي قد جرت على أساسه. من المحتمل كثيرا أن يكون فحسب نتاجا نظريا للدبلوماسية، إذا صح التعبير، ولكنه يشكل كما هو نتاج بارز للنظرية البلشفية في الديكتاتورية.

لا يقاس حق الاقتراع، كأي حق سياسي بشكل عام، بنوع من التصور المجرد لـ«العدالة» ولا بالعلاقة مع أي كلمات بورجوازية ديموقراطية أخرى، بل يقاس بالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي صمم لأجلها. وحق الاقتراع الذي وضعته الحكومة السوفياتية مصمم لمرحلة الانتقال من الشكل البورجوازي-الرأسمالي للمجتمع إلى الشكل الاشتراكي له، أي أنه مصمم لمرحلة دكتاتورية البروليتاريا. ولكن التفسير الذي وضعه لينين وتروتسكي لهذه الديكتاتورية يقضي بإعطاء حق التصويت للذين يعيشون على عملهم الخاص فقط، وحرمان كل من عداهم منه.

ومن الواضح أن حقا كهذا يكتسب معنى فقط في مجتمع يستطيع إعطاء جميع من يريدون أن يعملوا فرصة حياة متمدينة على أساس عمل المرء الذاتي. فهل هذا هو الحال في روسيا الآن؟ في ظل ظروف كالتي على روسيا أن تجابهها، ظروف انقطاعها عن السوق العالمي وعن أهم مصادرها من المواد الخام، وظروف تتضمن اجتثاثا عاما مريعا للحياة الاقتصادية وانقلابا قاسيا للعلاقات الإنتاجية نتيجة تحويل علاقات الملكية في الأرض والصناعة والتجارة، في ظل ظروف كهذه، من الواضح أن حيوات بلا عدد قد اجتثت فجأة دون أن يكون أمامها فرصة موضوعية للعثور على استخدام لقوة عملها ضمن الآلية الاقتصادية. ولا ينطبق هذا على الطبقتين الرأسمالية والمالكة للأرض فحسب، بل ينطبق أيضا على شرعية واسعة من الطبقة الوسطى وحتى على الطبقة العاملة ذاتها. فمن المعروف جيدا أن انكماش الصناعة قد أدى إلى عودة البروليتاريا المدينية على نطاق واسع إلى الريف سعيا إلى مكان ما في الاقتصاد الريفي. في ظل ظروف كهذه، يصبح الحق السياسي في الاقتراع على أساس الالتزام العام بالعمل إجراء لا يمكن فهمه. إذ يجب طبقا للتوجه الغالب حرمان المستغلين فقط من حقوقهم السياسية. ومن جهة أخرى، وفي الوقت الذي يجري فيه اجتثاث قوى العمل المنتجة على نطاق واسع، كثيرا ما تجد الحكومة السوفياتية نفسها مجبرة على تسليم الصناعة الوطنية لملاكها السابقين، على أساس الإيجار إن صح التعبير. وقد اضطرت الحكومة السوفياتية بالطريقة ذاتها إلى الوصول إلى حل وسط مع تعاونيات المستهلكين البورجوازية. كذلك ثبت أن الخبراء البورجوازيين لا يمكن الاستغناء عنهم. وهناك نتيجة أخرى للوضع ذاته هو أن الدولة تعيل قطاعات متنامية من البروليتاريين، مثل الحراس الحمر الخ، من الموارد العامة. من هنا، يجري، في الواقع، حرمان قطاعات واسعة متنامية من البروليتاريا والبورجوازية الصغيرة من كل حقوقها السياسية، هي بالتحديد تلك القطاعات التي لا تتوفر لها الآلية الاقتصادية وسيلة لممارسة التزامها بالعمل.

إن اعتبار حق الاقتراع طوباويا ونتاجا للخيال، والنظر إليه مقطوعا عن الحقيقة الاجتماعية، أمر ليس له أي معنى، وهو لهذا السبب ليس أداة جدية لديكتاتورية البروليتاريا. إنه مفارقة واستباق لحالة حقوقية مناسبة لاقتصاد اشتراكي تام ناجز، ولكنها غير مناسبة للمرحلة الانتقالية، مرحلة دكتاتورية البروليتاريا.

لقد قامت الطبقة الوسطى بكاملها والانتلجنسيا البورجوازية الصغيرة بمقاطعة الحكومة السوفياتية شهورا عدة بعد أكتوبر وعطلت أجهزة سكة الحديد والبرق والبريد والتربية والإدارة، وعارضت بهذه الطريقة حكومة العمال. وكان من الطبيعي أن تعرض هذه جميعا لكل الإجراءات الضاغطة، التي شملت الحرمان من الحقوق السياسية ووسائل العيش الاقتصادية الخ، وذلك لتحطيم مقاومتها بيد من حديد. فكانت هذه بالضبط الطريقة التي عبرت بها الديكتاتورية الاشتراكية عن نفسها، ذلك أن الديكتاتورية الاشتراكية لا يمكن أن تتردد في استخدام القوة لضمان إجراءات معينة تشمل مصالح الجميع. ولكن عندما يتعلق الأمر بقانون اقتراع يحكم بالحرمان على قطاعات واسعة من المجتمع فيضعها سياسيا خارج إطار المجتمع، وفي الوقت ذاته لا يستطيع إفساح مكان لها حتى اقتصاديا داخل هذا الإطار، وعندما يتضمن هذا القانون الحرمان من الحقوق لا كإجراء ملموس لغرض ملموس بل كقاعدة عامة نافذة إلى وقت طويل، عندئذ لا يكون هذا القانون ضرورة من ضرورات الديكتاتورية بل بديلا مؤقتا غير قابل للتطبيق في الحياة. وهذا ينطبق بالمثل على السوفييتات كأساس وعلى الجمعية التأسيسية وقانون الاقتراع العام.

وصف البلاشفة السوفييتات بأنها رجعية لأن أغلبيتها من الفلاحين (مندوبي الفلاحين والجنود). ولكنها بعد تحولها إلى جانب البلاشفة أصبحت بالنسبة لهم ممثلة حقة للرأي الجماهيري. لكن هذا التحول المفاجئ كان مرتبطا فحسب بمسألتي الأرض والسلم16.

غير أن الجمعية التأسيسية وقانون الاقتراع لا يستنفدان المسألة. فنحن لم نبحث فيما سلف في تدمير أهم الضمانات الديموقراطية لحياة عامة صحية وللنشاط السياسي للجماهير العاملة: حرية الصحافة، حقوق الاجتماع والتنظيم، فقد اعتبرت هذه الحرية وهذه الحقوق محرمة على كل خصوم النظام السوفياتي. وحجج تروتسكي التي أوردناها سابقا والمتعلقة بالطبيعة البطيئة للهيئات الديموقراطية الانتخابية ليست مرضية أبدا ولا مقنعة فيما يتعلق بهذه التعديات (على الحقوق الديموقراطية). من جهة أخرى، فإن الحقيقة المعروفة جيدا والتي لا تناقش هي أن حكم جماهير الشعب العريضة أمر لا يمكن التفكير به إطلاقا دون صحافة حرة غير مقيدة ودون حق الاجتماع والتنظيم غير المحدود.

[16] - وجدت هذه الجمل الثلاثة الواردة بين قوسين في المخطوطة الأصلية على شكل ملاحظة في ورقة غير مرقمة. ومن المحتمل أن تكون روزا قد قصدت بها توسيعا للجمل السابقة. خاصة وأن هذه الجمل وجدت في المخطوطة مشطوبة مما يدل على أن روزا كانت تريد إعادة كتابتها أو توسيعها.

6- مسألة الديكتاتورية

يقول لينين: الدولة البرجوازية أداة لاضطهاد الطبقة العاملة، أمّا الدولة الاشتراكية فأداة لاضطهاد البورجوازية. إنه إلى حد ما يقول أن الدولة الاشتراكية ليست إلا الدولة الرأسمالية واقفة على رأسها. تغفل هذه النظرة المبسطة الأمر الأساسي، ألا وهو أن حكم الطبقة البورجوازية ليس بحاجة إلى تدريب وتثقيف كل جماهير الشعب سياسيا، على الأقل ليس أبعد من حدود ضيقة، بينما يشكل هذا عنصر حياة ديكتاتورية البروليتاريا، وهواء تنفسها الذي لا تستطيع العيش دونه.

ويكتب تروتسكي قائلا: «بفضل النضال المفتوح والمباشر من أجل السلطة الحكومية، تراكم الجماهير كمية هائلة من الخبرة السياسية باسرع وقت، وتصعد بسرعة درجة إثر أخرى من درجات تطورها السياسي».

هنا يدحض تروتسكي نفسه ويدحض أصدقاءه. إذ أنهم، وبالضبط لأن الأمر كذلك، قطعوا الطريق على إرساء أساس الخبرة السياسية وعلى مصدر هذا التطور الصاعد، وذلك بمقمعهم للحياة العامة! والا فإن علينا أن نفترض أن الخبرة والتطور كانا ضروريين حتى استيلاء البلاشفة على السلطة، وأصبحا إذ ذاك زائدين عن الحاجة بعد أن وصلا أعلى ذروة لهما. (خطبة لينين: لقد كسبت الاشتراكية روسيا!!!)

في الواقع، العكس هو الصحيح. فالمهام العملاقية ذاتها التي أخذها البلاشفة على عاتقهم بشجاعة وعزم تتطلب أكثف تدريب سياسي للجماهير وتتطلب مراكمة الخبرة.

الحرية لأنصار الحكومة فقط، ولأعضاء الحزب فقط- مهما كان عددهم عظيما- ليست حرية على الإطلاق. الحرية أبدا وعلى الإطلاق هي حرية من يفكر بطريقة مختلفة. ليس بسبب أي مفهوم متعصب لـ«العدالة»، ولكن لأن كل ما هو مطهر وصحي ومثقف في الحرية السياسية يعتمد على هذه الخاصية الأساسية، وفعالية هذه الحرية تتلاشى عندما تصبح «الحرية» امتيازا خاصا.

إن البلاشفة أنفسهم لن يقبلوا، وأيديهم على قلوبهم، أن ينكروا أنه يتعين عليهم أن يتلمسوا خطوة إثر خطوة ويجربوا ويختبروا حينا هذا الطريق وحينا آخر ذاك، وأن الكثير من اجراءاتهم لا يمثل درر الحكمة التي لا تقدر بثمن. وسيكون هذا هو حالنا جميعا، ويجب أن يكون، عندما نصل النقطة ذاتها، حتى لو لم تسد الظروف الصعبة نفسها.

الافتراض الضمني الذي يقف خلف نظرية لينين-تروتسكي في الدكتاتورية هو الآتي: ان التحويل شيء ويتحقق بمعادلة جاهزة تقبع في جيب الحزب الثوري، ولا تحتاج إلا إلى تطبيقها في الممارسة بعزم ونشاط. لكن هذا ليس هو الحال، لسوء الحظ (أو ربما لحسنه). فالتنفيذ العملي للاشتراكية كنظام اقتصادي واجتماعي وحقوقي ليس مجموع وصفات جاهزة، بل هو أمر غائب تماما في ضباب المستقبل. وما نملكه في برنامجنا لا يعدو بضعة علامات مميزة تشير إلى الاتجاه الذي يجب أن ننظر فيه إلى الإجراءات الضرورية، وهذه العلامات في الغالب، سلبية في طابعها. فنحن نعرف بهذا القدر أو ذاك ما يتوجب علينا القضاء عليه منذ البداية لنفتح الطريق إلى الاقتصاد الاشتراكي. ولكن عندما يصل الأمر إلى طبيعة آلاف الإجراءات المحددة الصغيرة والكبيرة الضرورية لإدخال المبادئ الاشتراكية إلى الاقتصاد والقانون والعلاقات الاجتماعية جميعها، فإننا عندئذ لن نجد المفتاح في أي برنامج لأي حزب اشتراكي ولا في أي كتاب اشتراكي، وليس هذا موطن ضعف، بل إنه ما يجعل الاشتراكية العلمية متفوقة على كل المنوعات الطوباوية. إذ لا يجب أن يكون النظام الاشتراكي، ولا يمكن أن يكون، إلا نتاجا تاريخيا يولد في مدرسة تجاربه ذاتها، يولد خلال تحقيقه، وهو كنتيجة لتطور التاريخ الحي، يملك –مثل الطبيعة العضوية التي يشكل في التحليل الأخير جزءا منها، يملك العادة الحميدة، عادة خلق إنتاج وسائل إشباع أي حاجة اجتماعية حقيقية في الوقت ذاته الذي يخلق فيه هذه الحاجة، عادة خلق المهمة وحلها في الوقت ذاته. بيد أنه إذا كان الأمر كذلك، فإن من الواضح أن الاشتراكية بطبيعتها لا يمكن أن تخلق باصدار القوانين أو تحقق بواسطة مراسيم. إنها تتطلب مسبقا عددا من اجراءات القوة – ضد الملكية إلى آخره. يمكن للسلبي، للتدمير، أن يتحقق بمراسيم، أمّا الإيجابي، البناء، فلا يمكن له ذلك. مجال جديد، وآلاف المشاكل، ولا يستطيع غير التجربة فتح آفاق جديدة وتصحيحها. ولا يمكن أن يصحح المحاولات الخاطئة جميعا سوى الحياة الفوارة غير المعاقة التي تتشكل في آلاف الأشكال والاستحداثات الجديدة. إن الحياة العامة في البلاد التي تسود فيها حرية محدودة حياة فقيرة تاعسة وجامدة عقيمة إلى حد بعيد، وذلك بالضبط لأن الإفتقار إلى الديموقراطية يقطع كل شرايين حياة الثورة الروحية والتقدم (البرهان: سنة 1915 والأشهر من(شباط) فبراير إلى أكتوبر 1917). لقد كانت الحياة التي تحدثنا عنها الحياة السياسية، ولكن الشيء ذاته ينطبق على الحياة الاقتصادية والاجتماعية أيضا. يتوجب

على كل جماهير الشعب أن تشارك في هذه الحياة، وإلا صدرت الاشتراكية بقوانين يضعها، من خلف بضعة مكاتب رسمية، حفنة من المثقفين.
الرقابة العامة ضرورية ولا غنى عنها. وإلاّ اقتصر تبادل الخبرة على دائرة مغلقة من موظفي النظام الجديد، فيصبح الفساد أمرا محتوما (كلمات لينين، نشرة رقم 29). إن الاشتراكية في الحياة تتطلب التحويل الروحي الكامل للجماهير التي جعلتها منحلة قرون من الحكم الطبقي البرجوازي. الغرائز الاجتماعية بدلا من الغرائز الذاتية الأنانية، المبادرة الجماهيرية بدلا من العطالة، المثالية التي تقهر كل معاناة... الخ الخ. لا أحد يعرف هذا أفضل من لينين، ولا أحد يصفه بنفاذ ويكرره بعناد أكثر منه، ولكنه مخطئ تماما في الوسائل التي يستخدمها: المرسوم والقوة الدكتاتورية لمراقبة عمال في مصنع والعقوبات الوحشية والحكم بالإرهاب. هذه جميعا ليست إلاّ مسكنات. فليس هناك من طريقة للولادة الجديدة سوى مدرسة الحياة العامة ذاتها، والديموقراطية على أوسعها وبدون حدود والرأي العام. إن الحكم بالإرهاب هو الذي يحط من المعنويات.
عندما يصفى ذلك كله، فما الذي يبقى؟ بدلا من الهيئات التمثيلية تؤلف بالانتخاب العام الشعبي، وضع لينين السوفياتات ممثلا حقيقيا أوحدا للجماهير العاملة. ولكن الحياة في السوفياتات ستصبح مقعدة هي الأخرى بالقمع الذي يمارس على الحياة السياسية في البلاد ككل. فبدون الانتخابات العامة، وبغير حرية للصحافة والاجتماع غير محدودة وبدون اصطراع الآراء بحرية، تخمد الحياة في كل مؤسسة عامة، وتصبح مجرد شبه حياة لا يبقى فيها من عنصر ناشط سوى البيروقراطية. وستغط الحياة العامة في النوم بالتدريج، ليحكم ويوجه بضع عشرات من القادة الحزبية ذوي الطاقة التي لا تستنفد والتجربة التي لا حدود لها. ومن بين هؤلاء سيتولى القيادة في الواقع حفنة من الرؤوس لتدعى نخبة من العمال بين حين وآخر إلى اجتماعات تقوم فيها بالتصفيق للقادة والموافقة بالإجماع على مشاريع قرارات مقترحة. وهذا في واقع الأمر حكم طغمة، إنه ديكتاتورية، ليس بالتأكيد ديكتاتورية البروليتاريا، بل فقط دكتاتورية قبضة من السياسيين، أي دكتاتورية بالمعنى البورجوازي، بمعنى حكم اليعاقبة. (تأجيل مجلس السوفيات من ثلاثة أشهر إلى ستة!). نعم، إننا نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك: إن حالة كهذه لا يمكن إلاّ أن تؤدي بالضرورة إلى جعل الحياة العامة وحشية: محاولات اغتيال، رمي الرهائن بالرصاص الخ. (خطبة لينين في الانضباط والفساد).

7- النضال ضد الفساد

مشكلة الصراع مع البروليتاريا-الرثة مشكلة لها أهمية قصوى في كل ثورة. وسيكون علينا نحن في ألمانيا، كما في كل مكان آخر، أن نجابه هذه المشكلة. إن العنصر البروليتاري-الرث منغرس بعمق في المجتمع البورجوازي. إنه ليس فحسب قطاعا خاصا ونوعا من النفايات ينمو إلى حد هائل عندما تتهاوى جدران النظام القائم، بل هو جزء لا يتجزأ من الكل الاجتماعي. ولقد بينت الأحداث في ألمانيا، بدرجة أو أخرى في غيرها من الأقطار، سهولة تعرض كل قطاعات المجتمع البورجوازي لهذا الانحطاط. فالتتابع من الربح التجاري الفاحش إلى الصفقات الوهمية إلى غش المواد الغذائية إلى الغش إلى الاختلاس الرسمي إلى السرقة إلى السطو والسلب يندفع بطريقة أمحت معها الحدود بين المواطنين الشرفاء وبين المجرمين. وتتكرر الظاهرة ذاتها في الانحطاط المنتظم والسريع للسادة البورجوازيين عندما ينتقلوا إلى أرض إجتماعية غريبة في مستعمرات ما وراء البحار. والمجتمع البورجوازي يقع، بتحطيم الحواجز المتعارف عليها ومعايير الأخلاق والقانون، ضحية انحطاط مباشر غير محدود، ذلك أن أكثر قوانين حياة هذا المجتمع جوهرية، ألا وهو استغلال الانسان للإنسان، هو أكثر اللا أخلاقيات انحطاطا. إن على الثورة البروليتارية أن تصارع هذا العدو وأداة الردة المضادة للثورة هذه في كل حين.

ومع ذلك، فالإرهاب في هذه الحالة أيضا سيف مثلم سلبي ذو حدين. وأقسى إجراءات القانون العسكري عقيمة في مواجهة نوبات المرض البروليتاري-الرث. ولا شك أن كل نظام يعتمد على القانون العسكري باستمرار يقود حتما إلى الاعتباط وكل شكل من أشكال الاعتباط يميل إلى فساد المجتمع. إن الوسيلة الفعالة الوحيدة التي تملكها الثورة البروليتارية، في هذا المجال أيضا، هي: إجراءات جذرية من طبيعة سياسية واجتماعية وأسرع تحويل ممكن للضمانات الاجتماعية لحياة الجماهير – الهاب المثالية الثورية التي لا يمكن الحفاظ عليها لأي فترة إلاّ عبر حياة خصبة تعيشها الجماهير ذاتها في ظل ظروف من الحرية السياسية غير المحدودة.

وكما أن فعل أشعة الشمس هو أكثر العلاجات نجاعة وتطهيرا ضد الإلتهابات وجراثيم الأمراض، كذلك فإن الشمس الشافية المطهرة الوحيدة هي الثورة ذاتها ومبدأوها المجدد والحياة الروحية ونشاط الجماهير ومبادرتها التي لا يمكن أن تخلق إلاّ بالثورة والتي تأخذ شكل الحرية السياسية الأكثر اتساعا[17].

وستكون الفوضى في حالتنا، كما هي في كل مكان، أمرا لا يمكن تجنبه. فالعنصر البروليتاري-الرث منغرس في عمق المجتمع البورجوازي ولا يمكن فصله عنه.

براهين:

1- بروسيا الشرقية، أعمال اللصوصية التي يقوم بها القوزاق.

2- إندلاع السرقة والسطو في ألمانيا (الربح الفاحش، هيئات البريد وسكة الحديد، الشرطة، ذوبان الحدود بين المجتمع المنظم جيدا والمجرمين).

3- انحطاط القادة النقابيين السريع.

ضد هذا كله، لا حول ولا قوة لإجراءات الإرهاب الوحشية. فهي على العكس من ذلك تسبب المزيد من الفساد. والعلاج المضاد الوحيد هو: مثالية الجماهير ونشاطها الاجتماعي، والحرية السياسية غير المحدودة.

إن هذا قانون موضوعي قاهر لا يمكن لأي حزب أن يكون معفى منه.

[17] - يبدو أن الفقرات السابقة تطوير وتوسيع للفقرة اللاحقة التي وجدت في المخطوطة على ورقة منفصلة غير مرقمة. فالفقرات السابقة تردد بشكل أوسع ما تورده الفقرة اللاحقة على شكل نقاط.

8- الديموقراطية والديكتاتورية

الخطأ الأساسي في نظرية لينين-تروتسكي يكمن في أنهما مثل كاوتسكي يعارضان الديموقراطية بالاشتراكية. فالبلاشفة وكاوتسكي على حد سواء يطرحون المسألة على الوجه التالي: «الديكتاتورية أم الديموقراطية». يختار كاوتسكي بالطبع «الديموقراطية» أي الديموقراطية البورجوازية، وذلك بالضبط لأنه يعارض بها الثورة الاجتماعية البديل. من جهة أخرى يختار لينين وتروتسكي الديكتاتورية مقابل الديموقراطية، وهما بذلك يحبذان دكتاتورية حفنة من الأشخاص أي أنهما يحبذان الديكتاتورية على النموذج البورجوازي. إن هذين الموقفين يقفان على طرفي نقيض، ولكنهما يبعدان بالتساوي عن السياسة الاشتراكية الحقة. لا تستطيع البروليتاريا عندما تستولي على السلطة أن تتبع النصيحة التي يسديها كاوتسكي بحجة «عدم نضوج البلد»، تلك النصيحة التي تقول بأن تتخلى البروليتاريا عن الثورة الاشتراكية وتكرس نفسها للديموقراطية إنها لاتستطيع إتباع هذه النصيحة دون أن تخون بذلك نفسها والأممية والثورة. وعليها في الحال أن تتخذ الإجراءات الاشتراكية بعزم ونشاط وبلا تردد، أي أن تمارس الديكتاتورية، ولكن دكتاتورية الطبقة ، لا دكتاتورية الحزب ولا دكتاتورية الطغمة- وذلك يعني ديكتاتورية الطبقة في أوسع أشكالها الجماهيرية على أساس المشاركة الفعالة غير المحدودة لكل جماهير الشعب، أي الديموقراطية بلا حدود.

يكتب تروتسكي قائلا «ما كنا كماركسيين لنعبد يوما الديموقراطية الشكلية». نعم بالتأكيد ما كنا لنعبد يوما الديموقراطية الشكلية، ولا نحن كذلك نعبد الاشتراكية او الماركسية. فهل يتبع من ذلك أننا يمكن أن نلقي أيضا بالاشتراكية إلى سلة النفايات كما فعل كانو ولنش وبارفوس، إذا أصبحت غير مريحة لنا؟ إن تروتسكي ولينين هما الدحض الحي لهذه الإجابة.

«ما كنا لنعبد يوما الديموقراطية الشكلية». كل ما يعنيه هذا هو: أننا كنا دوما نميز اللب الاجتماعي من الشكل السياسي للديموقراطية البورجوازية. لقد كشفنا دوما عن لب اللا مساواة الاجتماعية والافتقار إلى الحرية داخل قشرة المساواة والحرية الشكليين الحلوة. ولم يكن ذلك كي نرفض هذه الأخيرة، بل كي نحث الطبقة العاملة على أن لا تكتفي بالقشرة بل تستولي على السلطة السياسية لكي تخلق الديموقراطية الاشتراكية بدل الديموقراطية البورجوازية – لا لنتخلص من الديموقراطية كلها.

لكن الاشتراكية الديموقراطية ليست شيئا يبدأ فقط في الأرض الموعودة بعد وضع أسس الاقتصاد الاشتراكي، ولا هي هدية عيد الميلاد تعطى للشعب الذي يستحقها، الشعب الذي حبا حتى ذلك الحين حفنة الديكتاتوريين الاشتراكيين بالدعم. إن الديموقراطية الاشتراكية تبدأ في الوقت ذاته الذي يحطم فيه الحكم الطبقي ويبدأ فيه بناء الاشتراكية. إنها تبدأ في اللحظة ذاتها التي يستولي فيها الحزب الاشتراكي على السلطة. إنها ديكتاتورية البروليتاريا ذاتها.

بلى، الديكتاتورية! ولكن الديكتاتورية التي تتكون عبر تطبيق الديموقراطية لا عبر القضاء عليها، عبر الهجوم النشيط الحازم على الحقوق والعلاقات الاقتصادية للمجتمع البورجوازي، ذلك الهجوم الذي لا يمكن بدونه حدوث تحويل اشتراكي. لكن هذه الديكتاتورية يجب أن تكون ديكتاتورية الطبقة لا ديكتاتورية الأقلية القيادية الصغيرة باسم الطبقة – أي أن هذه الديكتاتورية ينبغي أن تتقدم خطوة خطوة من خلال المشاركة الجماهيرية النشيطة وينبغي أن تكون تحت تأثير هذه الجماهير وخاضعة لسيطرة نشاط جماهيري كامل، يجب أن تنبثق من تنامي المران السياسي لجماهير الشعب.

لا شك في أن البلاشفة كانوا سيسيرون في هذا الطريق ذاته لولا الضرورة المريعة التي فرضتها عليهم الحرب العالمية والاحتلال الألماني وكل الصعوبات غير العادية التي ترتبط بهما، إذ لم يكن هناك بد من أن تشوه هذه الأمور أي سياسة اشتراكية مهما كانت هذه السياسة تتمتع بنوايا طيبة ومبادئ ناصعة.

إن البرهان على ذلك هو استخدام الحكومة السوفياتية للإرهاب بشكل واسع في الفترة الأخيرة قبيل انهيار الإمبريالية الألمانية وبعيد اغتيال السفير الألماني.

كل ما حدث في روسيا أمر يمكن فهمه ويشكل سلسلة حتمية من الأسباب والنتائج، نقطة البداية فيها هي فشل البروليتاريا الألمانية ونقطة النهاية هي احتلال الإمبريالية الألمانية لروسيا. وأننا بلا شك نطلب من لينين ورفاقه أمرا فوق إنساني إذا توقعنا منهم في ظل ظروف كهذه أن يبنوا أفضل ديموقراطية وديكتاتورية بروليتارية نموذجية واقتصادا مزدهرا. لقد قدم لينين ورفاقه، بموقفهم الثوري الحازم وقوتهم المثلى في العمل وإخلاصهم الذي لا يتزعزع للأممية الاشتراكية، كل ما كان يمكن أن يقدم في ظل هذه الظروف الشيطانية القاسية. لكن الخطر يبدأ عندما يجعلون من الضرورة فضيلة ويريدون أن يصبوا كل التاكتيكات التي فرضتها الظروف القاهرة في نظام نظري كامل وعندما

يريدون أن يقدموا هذه التاكتيكات للبروليتاريا العالمية وكأنها مثال يجب أن يحتدى. وعندما يضعون أنفسهم في دائرة الضوء الذي أشعوه هم أنفسهم، ويخفون الخدمة التاريخية التي لا مراء فيها والتي أدوها تحت ركام الخطوات الخاطئة التي فرضتها عليهم الضرورة، فإنهم إنما يقدمون خدمة تافهة للاشتراكية الأممية، تلك الاشتراكية التي حاربوا من أجلها وقاسوا من أجلها. فهم يريدون أن يضعوا في جعبة الاشتراكية كل التشويهات التي فرضها القهر والضرورة في روسيا وكأنها اكتشافات جديدة – تلك التشوهات التي ليست في التحليل الأخير غير نتائج إفلاس الاشتراكية الأممية في الحرب العالمية الراهنة.

ليصرخ الاشتراكيون الحكوميون الألمان بملء أفواههم أن حكم البلاشفة في روسيا تعبير مشوه عن دكتاتورية البروليتاريا. لكن إذا كانت هذه الديكتاتورية مشوهة، فما ذلك إلاّ نتاج سلوك البروليتاريا الألمانية التي هي بحد ذاتها تعبير مشوه عن الصراع الطبقي الاشتراكي. كلنا خاضعون لقوانين التاريخ، ولا يمكن تحقيق النظام الاجتماعي الاشتراكي إلاّ عالميا.

لقد أظهر البلاشفة أنهم قادرون على فعل كل ما يمكن لحزب ثوري حقيقي أن يفعل ضمن حدود الإمكانات التاريخية. ولا يفترض فيهم أن يجترحوا المعجزات. ذلك أن قيام ثورة بروليتارية نموذجية لا أخطاء فيها في بلد معزول أنهكته الحرب العالمية وخنقته الإمبريالية وخذلته البروليتاريا العالمية ليس إلا معجزة.

ما يتوجب فعله حقا هو تمييز الهام من غير الهام، اللب من القشرة العرضية، في سياسات البلاشفة. فالمشكلة الأكثر أهمية، في المرحلة الراهنة التي نواجه فيها صراعات نهائية وحاسمة في العالم كله، هي المسألة الملحة في عصرنا. وليست هذه المشكلة هي هذه المسألة الثانوية أو تلك من مسائل التاكتيك، بل هي مسألة قدرة البروليتاريا على العمل، وقدرتها على التصرف وتصميمها على استيلاء الاشتراكية على السلطة. وفي هذا لا يزال لينين وتروتسكي وأصدقاؤهما هم الأوائل، هم الذين تقدموا إلى الأمام ضاربين مثلا لبروليتاريا العالم. إنهم لا يزالون الوحيدين الذين يستطيعون أن يقولوا لقد جرؤنا.

هذا هو الأمر الهام الخالد في سياسة البلاشفة. وهم بهذا المعنى أدوا خدمة خالدة هي أنهم ساروا على رأس البروليتاريا العالمية في الاستيلاء على السلطة السياسية ومعالجة مسألة تحقيق الاشتراكية عمليا، ودفعوا بقوة تسوية الحسابات بين العمل ورأس المال في العالم كله. إن المشكلة يمكن أن تطرح فحسب في روسيا. لكنها لا يمكن أن تحل في روسيا. وبهذا المعنى فإن المستقبل للبلشفية في كل مكان.